# تدبر وفهم كَلَامِ رَبِّي

## جزء الشورى

**د. جمعة بن خادم بن سلم العلوي**

**سلطنة عمان**

**18 ذي الحجة 1447 الموافق 4 مايو 2026**

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**الموضوع** ..... .. ..... . . . . .. . . . . ... . ... . . . . . .**الصفحة**

سور الشورى..... .... . .. . .. . . .. . . . . . . . . . . . .. 4

سورة الزخرف..... . . ... . . . . . . . . . . . . . . .. 36

سورة الدخان. . . . ... . . . ..... . . . . . .. . . . . . . . . . .. 62

سورة الجاثية..... . . . . . .. .. . . . . . .. . . . . . 76

المراجع . . . . . .. . . . . .. 88

## سورة الشورى

### تسمية السورة

**(**سورة الشورى**)**: وهو الاسم الأشهر والأكثر تداولاً في المصاحف وكتب التفسير، سُميت بذلك لوصف الله عز وجل للمؤمنين فيها بالتشاور في قوله تعالى: (وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ).

ولنفس السبب قد يطلق عليها بعضهم **سورة (شورى) ب**حذف حرفي التعريف (الألف واللام) حكايةً للفظ الوارد في الآية.

وقد يطلق عليها سورة (حم عسق): سُميت بذلك في العديد من كتب التفسير ومصاحف السلف، وذلك لافتتاحها بهذه الحروف المقطعة، وقد يختصر البعض هذا الاسم إلى سورة (عسق).

وهي سورة مكية كبقية الحواميم، وهو قول جمهور المفسرين، أي أنها نزلت في مكة المكرمة قبل الهجر، وتحديداً قيل: بعد سورة فصلت. ويستثني بعض العلماء آيات معينة (مثل الآيات من 23 إلى 27) ويرون أنها نزلت في المدينة المنورة. والله أعلم.

ورد خلاف بين علماء عدد الآيات (العدّاد) في [سورة الشورى]، فهي 53 آية في عد مدرسة الكوفة، وعدها في مدرسة حمص 51 آية، وهي 50 في العد الحجازي (المكي والمدني) والشامي، وعدها في مدرسة البصرة 49 آية، وهذا الخلاف لا ينقص من القرآن شيئا، وإنما عد الفواصل، فما عُد في مدرسة آية قد تعده مدرسة أخرى آيتين، مثل حم، عسق، هل هما آية واحدة أم آيتان، أم هما جزء من آية، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

*(حم (1) عسق (2) كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (4) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (5) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم

بِوَكِيلٍ (6) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (8) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (9) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(10) فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(12) )

هذه الافتتاحية المهيبة لـ سورة الشورى تمثل لوحة تواصلية متكاملة، تتشابك فيها خيوط الوحي، والكون، والتشريع، والتوحيد.

الفضاء السياقي: يرى ابن عاشور أن المقصد الأساسي لسورة الشورى هو "إثبات أن الوحي الحاصل للنبي صلى الله عليه وسلم هو من جنس الوحي السالف"، بينما يتعامل سيد قطب مع الظلال التعبيرية للآيات ليربطها بـ"محورية العقيدة واستعلاء الحقيقة الإلهية".

السياق النفسي والدعوي: تبدأ الآيات بتثبيت قلب النبي ﷺ وتأكيد أن ما يواجهه من تكذيب ليس بدعاً من الرسل؛ فالوحي ممتد ومتصل ومصدره واحد: (اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

المقصد المقارن: فرز البشرية تجاه هذا الوحي إلى فريقين: (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)، مع حسم قضية المرجعية عند الاختلاف وإرجاعها إلى الله تبارك وتعالى.

اللسانيات وبنية الخطاب (الحروف المقطعة والاتصال): بنية (حم، عسق): هذا التتابع الفريد (خمسة أحرف مقطعة في آيتين) هو أطول فواتح السور الحروفية. من الناحية اللسانية، الحروف المقطعة هي "أصوات مجردة" تنبه السامع وتتحدى ملكته البيانية.

*(كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ): قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: يريد: أخبار الغيب.

الربط الإشاري الشائع (كَذَٰلِكَ): الكاف للتشبيه، و"ذا" للإشارة. وهنا تبرز عبقرية النظم؛ فالتشبيه يربط بين شيئين، والمشار إليه هنا هو مضمون الوحي القادم وطريقته. أي: مثل ذلك الإيحاء المعجز البليغ المتمثل في هذه الحروف، يوحي الله إليك.

التحليل النحوي وأثره الدلالي: تتميز هذه الآيات بتقديم المعمولات وبطبيعة الجمل الحاضنة للثنائيات الصفاتية:

صيغة المضارع (يُوحِي): جاء الفعل مضارعاً ليدل على "التجدد والاستمرار"، فالوحي حركة ممتدة عبر التاريخ لم تنقطع إلاّ بتمام الرسالة.

*(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)، تقديم الجار والمجرور (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ): يفيد القصر والحصر، أي له وحده لا لغيره ملكاً وتصرفاً.

*(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ) أي: كل واحدة من السماوات تتفطر فوق التي عليها من هول قول المشركين (اتخذ الله ولدا) كما في سورة مريم: (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا، أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا) [مريم:90-91]، ومن مماراتهم في الساعة، (وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ) من المؤمنين، (أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

القراءة البلاغية والبيانية: يبرع البقاعي في "نظم الدرر" لإظهار المناسبات بين الألفاظ، بينما يغوص ابن القيم في أسرار الملكوت والأسماء والصفات.

التلاؤم والمناسبة الصدمية: في قوله تعالى: (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ)؛ يلحظ البقاعي أن هذا الانفطار الكوني يكاد يحدث لعظمة جلال الله سبحانه، أو من ثقل القول والوحي النازل، أو من شدة فرية المشركين. التعبير بـ (مِن فَوْقِهِنَّ) استعلاء معنوي وحسي يُشعر القارئ بوطأة العظمة والجلال الفوقي الهائل.

*(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ) يحفظ أعمالهم، ويصحيها عليهم ليجازيهم بها، (وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) لم يوكلك الله بهم حتى تؤخذ بهم.

ملامح التدبر التربوي والحركي: إذا نظرنا بمنظار الفكر الحركي والتربوي الإسلامي، نجد هذه الآيات ترسم معالم المفاصلة والتوكل:

تحديد الوظيفة في قوله تعالى: (وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ): تحرير لداعية الحق من ثقل "النتيجة"، فالإلجاء والهداية بيد الله وحده، وعلى الرسول ومن تبعه البلاغ بـالقرآن، (قُرْآنًا عَرَبِيًّا) مبين واضح الأدوات والمقاصد.

*(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ) مكة، يعني: أهلها، (وَمَنْ حَوْلَهَا) يعني: قرى الأرض كلها، (وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ) أي: تنذرهم بيوم الجمع: وهو يوم القيامة، يجمع الله فيه الآولين والآخرين، وأهل السماوات وأهل الأرضين، (لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ) لا شك في الجمع أنه كائن، ثم يتفرقون (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ).

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذاتَ يَومٍ جالِسًا وفي يَدِه عودٌ يَنكُتُ به، فرَفَعَ رَأسَه فقال: ما مِنكُم مِن نَفسٍ إلَّا

وقد عُلِمَ مَنزِلُها مِنَ الجَنَّةِ والنَّارِ، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، فلِمَ نَعمَلُ؟ أفلا نَتَّكِلُ؟ قال: لا، اعمَلوا، فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له، ثُمَّ قَرَأَ: {فأمَّا مَن أعطى واتَّقى وصَدَّقَ بالحُسنى}، إلى قَولِه: {فسَنُيَسِّرُه للعُسرى} [الليل: 5 - 10] [1].

*(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِير).

هذا المعنى قريب من قوله تعالى في سورة الزخرف: (﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الزخرف:33]، أي: لولا أن يفتتن البشر جميعاً فيكفروا طمعاً في هذا المتاع، لصببنا الدنيا صباً على الكافرين لهوانها علينا.

لكن قال ابن عباس رضي الله عنهما: على دين واحد، وقال مقاتل: على ملة الإسلام، كقوله تعالى: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ) [الأنعام:35]، والله أعلم.

(وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ) في دين الإسلام، (وَالظَّالِمُونَ) الكافرون، (مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ) يدفع عنهم العذاب، (وَلَا نَصِير) يمنعهم من النار.

الجمع التربوي والتفريق الكوني (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً): مشيئة الله اقتضت الابتلاء وحرية الاختيار الإنساني؛ فالاختلاف الكوني مبني على الحكمة، والرحمة تُنال بالتعرض لها، (وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ)، والظالمون يخرجون من حمايتها باختيارهم: (والظالمون مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ).

(أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ) أم هنا للإضراب ، بمعنى بل، أي : بل اتخذوا ، أي المشركون (فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ) قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي وليك يا محمد صلى الله عليه وسلم، وولي من اتبعك، (وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، فالله هو الولي (الناصر) لك وللمؤمنين، والقادر على البعث الإحياء لجميع الخلق والناس والأمم، فيها تطمين للنبي صلى الله عليه وسلم وبشارة بانتصار دعوته، مثل قوله سبحانه: (إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ ) [آل عمران:60]، وهذه قاعدة عظيمة في التوكل واليقين، فمتى استمدّ العبد عونه من الله، فلن تقف أمامه أي قوة في الأرض.

الحسم النفسي عند الخلاف (وما اختلفتم فيه من شيء فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ}: التربية على الاستسلام للوحي تفضي بالضرورة إلى إسقاط الأهواء؛ وحين تستقر النفس على هذا اليقين تنطق بـ: (ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ).

---

1 – أخرجه مسلم (2647) وهذا لفظه، والبخاري (1362)، وأبو داود (4694) باختلاف يسير، والترمذي (2136)، وابن ماجه (78) مختصرا.

*(فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير).

*(جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا): عطف عالم الأنعام على عالم الإنسان إشارة لناموس الزوجية العام الكفيل بعمارة الأرض، واللفظة المحورية هنا هي (يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ)، أي: يبثكم ويكثركم في هذا الطور التزاوجي.

قمة التنزيه: نفياً وإثباتاً: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) هذه الآية هي قاعدة التنزيه الكبرى عند أهل السنة (وهو ما فاضت به كتب ابن تيمية):

الكاف في (كَمِثْلِهِ): اختلف النحاة والبلاغيون فيها؛ فمنهم من قال إنها زائدة لتأكيد النفي (مبالغة)، ومنهم من قال إنها جاءت لنفي "المِثْل المَثِيل"، وهو أبلغ أساليب العرب في نفي الصفة عن الذات (كقولهم: ليس لأخي كرمِك كرمٌ).

الاقتران الذكي: يعقب النفي المطلق بالمثليّة إثباتٌ مطلق للصفات السمعية والبصرية {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}؛ ليعلّمنا النص أن التنزيه لا يعني التعطيل (النفي المحض)، بل هو إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تفريط.

يُعد قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11] أصلًا جامعًا عند شيخ الإسلام ابن تيمية في باب توحيد الأسماء والصفات. ويقوم مذهبه على إثبات ما أثبته الله لنفسه من الصفات اللائقة بجلاله من غير تكييف ولا تمثيل، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات من غير تعطيل.

تلتقي هذه الآية عند ابن تيمية بنصين أو كتابين شهيرين من كتبه في أصول العقيدة، بيّن فيهما مذهب أهل السنة والجماعة، وهما:

أولاً: من كتاب "العقيدة الواسطية" يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عند تقريره لقاعدة الصفات:

«وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]. فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ نَفَى عَنْ نَفْسِهِ الْمُمَاثِلَةَ، وَأَثْبَتَ لِنَفْسِهِ صِفَاتِ الْكَمَالِ. فَمَنْ زَاغَ عَنِ التَّنْزِيهِ وَوَقَعَ فِي التَّشْبِيهِ وَعَبَدَ صُورَةً تَخَيَّلَهَا فِي خياله يكون بذلك من الكافرين».

ثانياً: من "الرسالة التدمريّة" (القاعدة في الصفات) وفي تقريره لمبدأ تنزيه الخالق وإثبات صفاته، يقول رحمه الله:

«فَعَلِمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لَا فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ. فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُثْبَتَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَا يُمَثَّلُ بِهَا. وَإِذَا كَانَ الْمَثَلُ هُوَ الْمُوَافِقَ لِغَيْرِهِ فِيمَا يَجِبُ وَيَجُوزُ وَيَمْتَنِعُ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُشَارِكُهُ شَيْءٌ فِيمَا يَجِبُ لَهُ وَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ وَيَجُوزُ لَهُ».

منهج ابن تيمية في الآية الكريمة:يوضح ابن تيمية وشراحه في مواضع عدة أن هذه الآية رد على طائفتين:

الرد على المشبهة والممثلة: في قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾؛ حيث ينفي الله عن نفسه مشابهة المخلوقين في الذات أو الصفات.الرد على المعطلة والنفاة: في قوله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾؛ حيث أثبت الله السمع والبصر، مما يدل على أن نفي المماثلة لا يستلزم نفي الصفات كما زعمت المعطلة.

إعراب (فَاطِرُ): جاءت مرفوعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف (هو فاطرُ)، أو بدل من الضمير في (إِلَيْهِ أُنِيبُ). وفي هذا التتابع الصوتي رفع لمقام الرب سبحانه بعد ذكر التوكل والإنابة.

*(لهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ)، أي: له مفاتيح الرزق في السماوات والأرض، قال الكلبي: المطر والنبات.

(يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ ) لأنّ مفاتيح الرزق بيده، (إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، نكتة المقابلة والمشاكلة: (يَبْسُطُ ... وَيَقْدِرُ): طباق سلب وإيجاب (التوسيع والتضييق) يجلّي كمال الربوبية وهيمنة التدبير الإلهي في أرزاق العباد، تماشياً مع صفة العلم المطلق: (إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

خلاصة: تبدأ الآيات بـ أصوات الوحي وحروفه المقطعة الحاضنة لمعاني الرسالة، وتمر بـ هيبة الملكوت وسجود الملائكة واهتزاز السماوات، لتهبط إلى واقع الأرض وتنذر أم القرى، وتفرز المكلفين، وتضع قانون المرجعية التشريعية والتنزيه العقدي، وتنتهي بـ مقاليد الرزق؛ ليتلاقى رزق الروح (الوحي) في أول الآيات، مع رزق البدن (يبسط ويقدر) في آخرها، في نسق بياني باهر العظمة والإحكام.

*(۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (13) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (14) فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(15) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(16) )

هذه الآيات من سورة الشورى تمثل الوعاء الجامع لفسيفساء النبوات، ورسم معالم "الدين الواحد" في أصله، ومصير البشرية ومسؤولية البلاغ.

السياق والمقاصد: تتنزل الآيات في سورة مكية معنية بـ "الشورى" و*"الوحي"* و*"الفصل في الخصومات"*.

المقصد العام: تقرير أن الإسلام (بمعناه العام: الاستسلام لله بالتوحيد) ليس بدعاً من القول، بل هو الخيط الأبيض الممتد من نوح إلى محمد ﷺ.

ربط السياق بالمقاصد: يرى سيد قطب أنّ العقيدة لا تولد مجزأة. الآيات جاءت لتنزع من المشركين وأهل الكتاب حجة "الخصوصية" أو "الجدة". الخطاب هنا يرسخ "وحدة المرجعية الإنسانية العليا"؛ فالحق لا يتعدد بتعدد الأزمان، وإنما تتعدد الشرائع الإجرائية (التفاصيل والشرائع والتكاليف) لحكم ومصالح، بينما "الدين" واحد.

*(شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ).

وفي سورة الأحقاف سماهم أولو العزم، فقال سبحانه: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) [الأحقاف:35]،

وفي سورة الأحزاب قال تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا) [الأحزاب:7].

أما سبب تسميتهم ب(ألو العزم) فلما تميزوا به من الهمة العظيمة في الدعوة إلى الله، والصبر على ما نالهم من الأذى البليغ في سبيل الله، والثبات في مواجهة الباطل والقوة في الحق ..... إلخ، ما اتصفوا به صلوات الله وسلامه عليهم.

قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) [الأحقاف:35] قال: ذوو الحزم والصبر. وقال الضحاك: ذوو الجد والصبر.

ومن هنا أثنى الله على أولي العزم من الرسل بما فيهم من جميل الخلال، وعظيم الصفات، كما قال عن نبيه نوح عليه السلام: إنه كان عبدا شكورا [الإسراء:3].

وقال عن نبيه إبراهيم الخليل عليه السلام: (وإبراهيم الذي وفى) [النجم:37]، وقال: (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين) [النحل:120].

وقال عن نبيه موسى عليه السلام: (وكان عند الله وجيها) [الأحزاب:69]، وقال عن نبيه عيسى عليه السلام: وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين [آل عمران:45].

وخاطب خاتم رسله محمداً عليه الصلاة والسلام بقوله: (وإنك لعلى خلق عظيم) [القلم:4].

وقال تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) [الأحزاب:21]. والله أعلم.

القراءة اللسانية والنحوية: التنازع والتعدية في قوله تعالى: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ) «شَرَعَ»: أي: بين وسنّ، وهي فعل يتعدى بنفسه إلى المفعول، والمفعول هنا هو الاسم الموصول «مَا».

«لَكُم»: شبه جملة متعلق بـ «شَرَعَ»، وتقديم الجار والمجرور هنا يفيد الاهتمام والامتنان؛ أي أن هذا التشريع مصلحة محصورة لكم وفي نفعكم.

«مِّنَ الدِّينِ»: بيان لـ «مَا»، وقُدِّم الجار والمجرور على الموصول لتعجيل بيان شرف هذا المشرَّع وأنه الدين الذي ارتضاه الله، وهو الذي قال عنه في سورة آل عمران: (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) [آل عمرن:19].

الالتفات والانتقال برتب الضمائر: تأمل الانتقال في الآية الأولى: (مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا) [غائب]، ثم قال سبحانه: (وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) [مخاطب] ثم (وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ) [عودة للغائب]».

هذا الالتفات – حسب فهم ابن عاشور في (التحرير والتنوير) ليس لمجرد التلوين الصوتي، بل لرفع مقام النبي ﷺ. فبينما ذُكر الأنبياء الآخرون بضمير الغيبة وبفعل "الوصية"، جُعل للنبي ﷺ خطاب المواجهة الكفاحية المستقلة بفعل «أَوْحَيْنَا».

"أنْ" المفسرة أم المصدرية: في قوله تعالى: «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ»: إما أن تكون مفسرة لـ «وصّى» و«أوحينا»؛ لأن الوصية والوحي يحملان معنى القول دون حروفه.

أو تكون مصدرية، والتقدير: (بإقامة الدين)، وعلى كلا الوجهين، فإن الجملة الطلبية الفعلية تبرز أن الدين هو شرع الله وتوحيده ومشروع "إقامة" (بناء ودعوة واستدامة) كما يُقام البناء.

القراءة البلاغية والبيانية: سر التفرقة بين "الوصية" و"الوحي": ألمح ابن القيم في بدايعه إلى لطيفة الفروق اللغوية والبلاغية هنا:

«وَصَّىٰ»: تستعمل في الأمور العظام المغلظة التي تتطلب حياطة وعناية شديدة، ولذلك قرنها بأولي العزم (نوح، إبراهيم، موسى، عيسى) لأنهم جاءوا لتأسيس الأصول ومصارعة عتاة الأرض.

«أَوْحَيْنَا»: خص بها النبي محمد ﷺ هنا، لأن الوحي يعتمد على خفاء وسرعة وسعة تشمل أصول الدين وتفاصيله وخاتميته، فجمع له بين رتبة "الوحي" ورتبة "الوصية" في الآية (حيث عطف المعطوفات عليها).

التدبر الإشاري والفكري: يركز شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله- على مفهوم "الدين الواحد" والرد على المرجئة والحلولية.

ويستدل بهذه الآية كثيراً لتقرير أن الأنبياء دينهم واحد وإن تنوعت شرائعهم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الأنبياءُ إخوَةٌ لعَلَّاتٍ: دِينُهم واحِدٌ، وأُمَّهاتُهم شَتَّى، وأنا أوْلى النَّاسِ بعيسى ابنِ مَريمَ.

ولفظ صحيح البخاري: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ.» [1].

الدين المشترك هو: عبادة الله وحده لا شريك له (التوحيد) وطاعته. والفرقة لم تكن لقصور في البيان الإلهي، بل لعلة أخلاقية وسلوكية (البغي).

التناسب السياقي: يلاحظ البقاعي أن الآية ختمت بـ (اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ).

هناك تقسيم بديع بين رتبتين: الاجتباء: وهو الاختيار المحض دون سبب ظاهر من العبد (وهي رتبة الأنبياء والشرائع الشارعة)، والهداية: المقيدة بشرط «مَن يُنِيبُ» (وهي رتبة التابعين المستمسكين بالوحي)، فالشرع والوحي فضل واجتباء، والعمل والاستقامة كسب وإنابة.

*(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)

يركز الأستاذ محمد قطب في كتابه "جاهلية القرن العشرين" على هذه الآيات مستلهماً منها أنّ أزمة البشرية ليست في عدم "وصول العلم الكوني"، بل في "البغي" الذي يحوّل العلم البشري إلى إله يُعبد من دون الله.

المقابلة والطباق الخفي في السلوك البشري: تأمّل التناظر الإعجازي بين أوامر الله والردود البشرية:

الأمر: (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)، والواقع البشري: (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ).

بعث الله الأنبياء كلهم بإقامة الدين والألفة والجماعة وترك الفرقة والمخالفة، وقال مجاهد: لم يبعث الله نبياً إلاّ وصاه بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والاقرار لله بالطاعة، فذلك دينه الذي شرعه لهم.

---

1 – أخرجه أبو داود (4324) باختلاف يسير، وأخرجه البخاري (3443) مختصراً

(كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ): من التوحيد، ورفض الأوثان، ثم قال: (اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ) يصطفي إليه من عباده من يشاء، (وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ) يهدي هداية التوفيق والإلهام والطاعة (مَن يُنِيبُ) أي: من يقبل على طاعته سبحانه.

ذلك أن الهداية نوعان: هداية الدلالة والإرشاد، وهو أن تدل أحد على الخير أو تبين له الطريق إلى الله، وهذه للأنبياء، وممكن تكون لكل أحد. وأمّا النوع الثاني فهو هداية التوفيق والإلهام والطاعة والاستسلام لله، وهذه بيد الله،

هنا بلاغة الإيجاز بالحذف والإحالة؛ فالعلم مظنة الاجتماع والائتلاف، لكن الآية قلبت التوقع باستعمال أداة الحصر والخطأ البشري «بَغْيًا» (مفعول لأجله). البغي (الظلم والحسد وطلب العلو) هو الذي وظّف العلم كأداة تشظٍّ لا كأداة تجميع.

(لفي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)، الصفة بالمصدر (مريب) لتوكيد الشك، والشك نوعان: شك عارض، وشك يورث الريبة والقلق النفسي. وصف شكهم بالمريب يدل على اضطراب عيشهم بغير عقيدة راسخة.

*(فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

البعد السياسي والاجتماعي للآيات: في قوله تعالى: (فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ): ذلك إشارة إلى ما وصى به الأنبياء من التوحيد، ويرى ابن عاشور أنّ الفاء في قوله تعالى: (فلذلك) هي "الفصيحة"، أي: إذا كان الأمر كما وُصف من تفرق أهل الكتاب وشكهم المريب، فاجعل ذلك سبباً لتركيز جهودك في الدعوة والاستقامة.

(وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ) أي: آمنت بكتب الله كلها، ثم جاءت الجمل المكثفة "إعلان المبادئ الدستورية للدعوة": (وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ): العدل المطلق حتى مع المخالف، قال ابن عباس – رضي الله عنهما- : أمرت أن لا أحيف عليكم بأكثر مما افترض الله عليكم من الأحكام.

ثم تأتي المفاصلة العمليّة والمسؤولية الفردية (لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ):، و انقطاع الجدال العقيم بعد وضوح الدلائل (لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ).

مصفوفة بلاغية لأدوات المقارعة في النص:

| الجملة القرآنية | الأداة البلاغية / النحوية | الأثر الدلالي والمقاصدي |
|---|---|---|
| (كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ» | فعل جامد يفيد الذم والتعاظم | تصوير مدى ثقل التوحيد على النفس المشرية؛ فهو كالجبل على صدورهم. |

رسمت هذه الآية خطة الحركة للمسلم المعاصر: دعوة بلا توقف (فادع)، ثبات على المبدأ دون انحراف للأهواء الجماهيرية (واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم)، والتعالي الأخلاقي بالعدل حتى في الخصومة والقطيعة.

*(وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

«حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ» استعارة مكنية من الزلل (دحضت رجله) تصوير الحجج الواهية كالأقدام التي تزل في الطين الفاسد فلا تثبت أمام زحف الحق.

*(اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۗ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (18) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19) مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (20) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (21) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (22) ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (23))

هذا السياق القرآني من سورة الشورى ينتقل بالخطاب من "تأسيس الشرائع والأمر بالاستقامة" إلى "معادلة الوجود الكبرى والمصير الإنساني". إنها آيات تهز الوجدان بما فيها من ثنائيات الرعب والرجاء، والعدل واللطف، والاستعجال الجاهل والإشفاق المؤمن.

السياق والمقاصد: سياق التلاحم والامتداد: يرى البقاعي في (نظم الدرر) أنّ هذا السياق جاء ليربط التشريع الإلهي السالف الذكر بذات الله وجلاله. بعد أن أعلن النبي ﷺ في الآية السابقة (اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ)، جاء التقرير المباشر بصفات الربوبية والأفعال: (اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ).

فالتشريع لا ينفصل عن الواقع؛ فهو محكوم بـ "الميزان" في الدنيا، وبـ "الساعة" في الآخرة.

(اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ) قال قتادة ومجاهد ومقاتل: سمي العدل ميزاناً؛ لأنّ الميزان آلة الإنصاف والتسوية، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أمر الله تعالى بالوفاء، ونهى عن البخس.

المقاصد الجوهرية: يرتكز سيد قطب حول فكرة "حقيقة القيمة والأوزان". المقصد هنا هو تخليص النفس البشرية من وهم "عاجلة الدنيا" وربطها بالوزن الحقيقي.

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ) فيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَعلَمُ متى تقومُ السَّاعةُ؛ لقولِه :وَمَا يُدْرِيكَ، أي: ما يُعْلِمُك؟! وهذا حقٌّ ثابتٌ؛ فإنَّ جبريلَ عليه السَّلامُ سأل النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: متى السَّاعةُ، فقال: ما المَسؤولُ عنها بأعْلَمَ مِن السَّائلِ [1].

قال التابعي الجليل سفيان بن عيينة وآخرون : كل موضع في القرآن الكريم وردت فيه هذه الصيغة (وَمَا أَدْرَاكَ) فقد أعلم الله بها نبيه وأخبره عنه، مثل قوله تعالى: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ) [القدر:2].

وكل موضع وردت فيه هذه الصيغة (وَمَا يُدْرِيكَ) فإنه لم يُعْلِم اللهُ بها نبيه ولم يخبره عنها) .مثل قوله تعالى: (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قريبا) [الأحزاب:36]، ومثل هذه الآية هنا.

الآيات تمهد لـ "محكمة العدل الإلهية"؛ فلما ذكر الله المحاججة الباطلة في الآيات السابقة، بيّن هنا أنّ حسم هذه المحاججات سيكون بالساعة التي يستعجلها المنكرون استخفافاً، ويخافها المؤمنون تعظيماً.

القراءة اللسانية والنحوية: تذكير الوصف مع المؤنث (لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ) حيث عدل عن لفظة "قريبة" بالتأنيث، وفي هذا توجيه نحوي بلاغي دقيق:

الوجه النحوي ذهب (الفراء والزجاج) إلى أنّ لفظ "قريب" هنا جاء على زنة المصدر، أو هو وصف محذوف الموصوف؛ أي: (شيء قريب) أو (في زمان قريب).

اللطيفة اللسانية: عُدل عن التأنيث لإفادة أن قرب الساعة ليس قرباً مكانياً تاء التأنيث فيه تابعة للمبتدأ، بل هو قرب رتبة وزمان، ولأن فكرة القرب هنا غلبت عليها المعنوية، فجردت من علامة التأنيث لإفادة الهول والسرعة، كأنها في حد ذاتها "أمرٌ قريب" لا يتأخر.

قلت: لكنها قريب حقيقة كذلك، بدلالة قوله تعالى بعدها: (يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ) وجلون خائفون، (مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۗ) أي: أنها آتية لاريب، (أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)، وبدلالة قوله تعالى: (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) [النازعات:46]، هذه ومضة

---

1 - أخرجه البخاري (50)، ومسلم (9) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه، وأيضا حديث عمر الطويل في الصحيحين.

قرآنية عظيمة تبين أنّ عمر الدنيا قصير، وإنما يتحقق البشر من ذلك عند معاينة يوم القيامة، وربما قبل ذلك حين يكشف الغطاء بالموت أو بشهود القيامة كما في قوله تعالى: (لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) [ق:22]

(اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ) حفي به، لطيف بالبَّر والفاجر، حيث لم يهلكهم جوعاً بمعاصيهم، وكل من رزقه الله من مؤمن وكافر وذي روح فهو ممن يشاء الله أن يرزقه (يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) ثم فسرها بقوله سبحانه: (مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ) الحرث هو الكسب، يعني: من كان يريد بعمله الآخرة، (نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ) بالتضعيف بالواحد عشرة، إلى ما شاء الله من الزيادة، (وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا) قال قتادة: نوته بقدر ما قسم الله له، (وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذلك، فمَن هَمَّ بحَسَنةٍ فلَم يَعمَلْها كَتَبَها اللهُ له عِندَه حَسَنةً كامِلةً، فإن هو هَمَّ بها فعَمِلَها كَتَبَها اللهُ له عِندَه عَشرَ حَسَناتٍ، إلى سَبعِ مِائةِ ضِعفٍ، إلى أضعافٍ كَثيرةٍ، ومَن هَمَّ بسَيِّئةٍ فلَم يَعمَلْها كَتَبَها اللهُ له عِندَه حَسَنةً كامِلةً، فإن هو هَمَّ بها فعَمِلَها كَتَبَها اللهُ له سَيِّئةً واحِدةً؛

الاستعارة المكنية والتركيب في (حَرْثَ الْآخِرَةِ) في قوله تعالى: (مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ): إضافة "حرث" إلى "الآخرة" يقول البلاغيون: استعارة مكنية. الحرث في الأصل هو شق الأرض وإلقاء البذر للمستقبل.

قلت: أو يقال: انتقل بكثرة الاستعمال ليحمل معنى عموم الكسب.والله أعلم.

قوله تعالى: (نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ): جواب الشرط مجزوم. وجاء الفعل «نَزِدْ» مسنداً إلى نون العظمة دلالة على فيض العطاء (الزيادة بالبركة ومضاعفة الحسنات).

بينما في جواب الشرط الثاني: « وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ»، لم يقل "نزد له"، واستعمل الجار والمجرور «مِنْهَا» (للتبعيض)، أي لن ينال الدنيا كلها، بل بعضاً مما كُتب له، كما قال قتادة: نوته بقدر ما قسم الله له، مما يبين الخسارة النحوية والدلالية لطالب العاجلة.

الاستثناء والتعليق في "إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ": نوع الاستثناء: اختلف النحاة فيه؛ هل هو متصل (أي: لا أسألكم أجراً إلاّ هذا الأجر وهو المودة)؟ أم منقطع (أي: لا أسألكم أجراً قط، ولكن أسألكم أن تودوني لقرابتي منكم)؟

والتعبير بـ «فِي الْقُرْبَىٰ» بالظرفية «فِي» بدلاً من "للقربى"، ليدل على أن المودة يجب أن تكون مستقرة وراسخة داخل قرابة الرحم والصلة، أو في التقرب إلى الله، تكون القربى ظرفاً لها.

القراءة البلاغية والبيانية: استعارة "الحرث" والطباق الفكري: يبين ابن القيم في كتابه الأمثال في القرآن بلاغة التشبيه بالحرث:

العمل الإنساني في الدنيا بذرة، والقلب هو الأرض، والنيّة هي السقيا، ف صاحب "حرث الآخرة" يبذر في طاعة الله، فالأرض باقية والثمر مستدام ومضاعف مجازاً بـ «نَزِدْ لَهُ».

أمّا صاحب "حرث الدنيا" يبذر في أرض سبخة فانية، تحصدها الآفات، وجاء التعبير بـ «وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ» بصيغة النفي المؤكد بـ «مِن» الاستغراقية لقطع أي أمل له هناك.

بلاغة الالتفات البصري والمشهدية المشخصة: تأمّل الانتقال المهيب من الغيب إلى الشهادة الكونية في قوله تعالى: (تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ)

استعمال الفعل المضارع المتعدي للرؤية البصرية «تَرَى» ينقل المخاطب فجأة من حيز الإخبار الذهني إلى حيز المراقبة العينية الشاخصة. أنت تراهم الآن، لقد قامت القيامة، وانتقل بك المشهد إلى الآخرة، هاهم المجرمون تراهم متلبسين بجرمهم يترقبون وقوع العقاب فوق رأسهم (وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ) حتماً ، جملة اسمية تفيد الثبوت والتحقق المطلق.

ثم تأتي "المقابلة والطباق المشهدي" الفوري: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ). لم يقل "هم في الجنات"، بل حدد البقعة الأجمل والأبهج وهي «رَوْضَاتِ» (جمع روضة وهي الأرض ذات الخضرة والماء والنور والبهجة).

ابن تيمية رحمه الله يفسر الميزان، واللطف، والمشيئة: الميزان: يقرر ابن تيمية أنه المقترن بالكتاب هو العدل، وما يعرف به العدل والإنصاف من العقول والفطن والقياس الصحيح. فالإسلام جاء بنورين: نور الوحي المكتوب (الكتاب)، ونور الميزان الفطري العقلي الذي توزن به الأفعال والحقوق.

اللطف والرزق: عند قوله تعالى: (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ)، يوضح ابن تيمية أنّ من لطف الله بعبده أن يسوق إليه رزقه برفق من حيث لا يحتسب، ومن لطفه أن يقدر عليه بعض المصائب ليسوقه إلى بوابات التعبد والإنابة؛ فالمنع أحياناً هو عين العطاء اللطيف.

التفكيك الاجتماعي لشركاء الجاهلية: في قوله تعالى: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ)

يلفت ابن عاشور الانتباه إلى أن الآية تضرب عمق "الجاهلية التشريعية"، فالاستفهام هنا للإنكار والتعجيب الكلي بـ «أَمْ» التقديرية (بل ألهم شركاء؟).

لقد تخلت الجاهلية عن "ميزان" الله العادل الذي أنزله كما في الآيات السابقة، واستبدلوه بشرائع الهوى والتحليل والتحريم الشخصي (كبلاغة الآبائية والعادات والتقاليد المصادمة للحق).

جاهلية الاستعجال والبلادة النفسية: يقف الأستاذ محمد قطب عند علم النفس القرآني في تفكيك لوعتين:

لوعة الكافر المستعجل: (يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا)، وهي بلادة نفسية وغرور ناجم عن الجهل بالزمن وبلادة الحواس الإيمانية.

مقابل وجل المؤمن المشفق: (وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا) قال ابن سعدي رحمه الله: أي: خائفون لإيمانهم بها وعلمهم بما تشتمل عليه من الجزاء بالأعمال، وخوفهم لمعرفتهم بربهم، أن لا تكون أعمالهم منجية لهم، ولا مسعدة، لهذا قال: (وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ) الذي لا مرية فيه ولا شك يعتريه، (أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ) ماروا الرسل وأتباعهم بإثباها، فهم في شقاق (لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) أي: معاندة ومخاصمة غير قريبة من الصواب، بل في غاية البعد عن الحق [1].

مصفوفة التحليل الدلالي والمفاهيمي للآيات:

| الكلمة | الجملة الظاهرة اللغوية | البلاغية الدلالة التربوية والمقاصدية |
|---|---|---|
| «يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ» | استعمال مادة (ماري) الجدال بشك | المماراة ليست بحثاً عن الحقيقة، بل لجاجة فكرية وتغطية على الخوف الداخلي مع الشك بالجدال الأجوف. |
| «الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ» | التذييل بالأسماء الحسنى بعد آية الرزق | دفع الوهم بأن "اللطف والرزق" نابعان عن ضعف أو مداهنة، بل الرزق نازل من منطلق القوة الغامرة والعزة والمنعة المطلقة. |
| «يَقْتَرِفْ حَسَنَةً» | استعمال (الاقتراف) وهو غالباً للسيئات | تضمين بلاغي عجيب؛ كأن فعل الحسنة في بيئة الجاهلية والصعوبات يحتاج إلى جهد وتنقيب واكتساب شديد كمن يقترف ويكتسب شيئاً بصعوبة. |
| «غَفُورٌ شَكُورٌ» | صيغ مبالغة متقابلة في الختام | يغفر الهنات والتقصير في الحرث، ويشكر (يثيب ثواباً عظيماً) على القليل من العمل الصالح في الروضات. |

1- ابن سعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المعروف بتفسير السعدي(ص739).

خاتمة: تتكامل هذه الآيات لترسم للمسلم بوصلة خطيرة جداً: إن هذا الدين الذي شرعه الله لنوح ومحمد ﷺ والأنبياء، نزل معه الكتاب لبيان الحق، والميزان لضبط حركة الحياة والعدل. فمن زاغ عن هذا الميزان طلباً لحرث الدنيا حُرِم من نصيب الآخرة، ومن جعل الميزان نصب عينيه إشراقاً وإشفاقاً من الساعة، ضوعف له الحرث، وتلقاه الله بلطفه ورزقه، لينتهي به المطاف في «رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ» حيث النعيم المطلق والفضل الكبير.

*(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (24) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (25) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (26) ۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (29) وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (30) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(31) )

تتنزّل هذه الآيات الكريمات من سورة الشورى كشلالٍ من التوجيه الإلهي الذي يربط بين حقائق الوحي الكبرى وقوانين النفس والكون الجارية. فبعد أن أحكم السياق السابق ميزان الآخرة والحرث فيها، يرتد الخطاب هنا لدحض افتراءات المشركين في الدنيا، ثم ينطلق لبيان سُنن الله في الرزق، والابتلاء، والكون، والأنفس.

السياق والمقاصد: التناسب والتحام المقاطع: يلحظ البقاعي في نظم الدرر تناسباً مذهلاً في هذا الانتقال؛ فالحق سبحانه لما ذكر تبشير عباده بالفضل الكبير، والمطالبة بالمودة والعدل، ذكر هنا الشبهة التي يثيرها الكبراء لقطع الطريق على هذه البشرى بالتكذيب: (أم يقولون افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا).

فجاء المقطع ليعلن حماية الله لوحيه أولاً، ثم حمايته لعباده بالرزق واللطف والرحمة من خلال ثنائية (المنع والعطاء) و(الغيث بعد القنوط).

المقاصد النفسية والكونية: يرى سيد قطب أن هذا المقطع يمثل "التربية الإلهية بالقدر والواقع". المقصد الأسمى هنا هو نقل النفس الإنسانية من التمركز حول مراداتها القاصرة (طلب بسط الرزق المطلق، تعجيل العقوبة، اليأس عند انحباس المطر) إلى التسليم لولاية الله وحمده. إنها آيات تسكب السكينة في وعاء المحنة، وتكشف للمؤمن الغايات الكامنة وراء التدبير الإلهي الحكيم.

القراءة اللسانية والنحوية: جزم الفعل المعتل وحذفه رسمًا في (وَيَمْحُ اللَّهُ الباطل) في قوله تعالى: (فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ):

الإشكال النحوي الشهير: الفعل «يَمْحُ» رُسم في المصحف بحذف الواو (يمحُ)، فهل هو معطوف على جواب الشرط المجزوم؟

التوجيه النحوي: الاستئناف هنا أرجح؛ لأن محو الباطل ليس مشروطاً بمشيئة الختم على قلب النبي ﷺ (إذ حاشاه أن يُختم على قلبه). فالواو هنا استئنافية، والفعل مرفوع بضمة مقدرة على الواو المحذوفة في رسم المصحف لعلة بيانية، أو هو مجزوم بـ "لو مقدرة"، أو حذفت الواو في الخط اتباعاً لسقوطها في اللفظ عند التقاء الساكنين (وَيَمْحُ اللَّهُ).

اللطيفة البلاغية للحذف: حذف حرف العلة رسمًا يشير لسانياً إلى سرعة زوال الباطل وخفته ونفاذ أمر الله فيه حتماً وبلا تراخٍ.

تعدية فعل التوبة بـ "عن" لا بـ "على": قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ) المعتاد في مواضع أخرى (تاب الله عليهم).

السر اللساني: التعدية بـ «عَنْ» هنا تُضمّن فعل القبول معنى "العفو والتجاوز وإسقاط التبعة". إن التوبة ورجاء القبول كان هماً أو ديناً ثقيلاً لازقاً بالعبد، فجاء القبول من الله ليزيحها ويفصلها "عنه"، وفي هذا سعة من الرحمة والرفق بالعباد لا تخفى.

فاعل الاستجابة في (وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا): الوجه الأول (ابن جرير الطبري): الذين آمنوا هم "الفاعل"؛ أي: ويطيع المستجيبون ربهم فيما أمرهم به.

الوجه الثاني (وهو الأبلغ بلاغة وسياقاً عند ابن القيم): الله هو الفاعل، والذين آمنوا "مفعول به"؛ أي: ويستجيب الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وحُذف الجار (لـ) لاتساع الكلام وتضمين الفعل معنى (يُعطي ويُكرم)، بدليل التذييل بعدها بالفصل والزيادة: (وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ).

تأمل صياغة ثنائية الرزق والابتلاء: (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ)، لفظة «بَسَطَ» التي تعني: توسيع وفرش، يقابله (بِقَدَرٍ) أي: يضيّق.

قَالَ خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ: فِينَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَذَلِكَ أَنَّا نَظَرْنَا إِلَى أَمْوَالِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَبَنِي النَّضِيرِ وَبَنِي قَيْنُقَاعَ فَتَمَنَّيْنَاهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ[1].

---

1- انظر أسباب النزول للواحدي: **أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري** (ص375)، **دار الإصلاح – الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م** وانظر تفسير البغوي: معالم التنزيل(ص1073)

وجاءت اللام في (لَبَغَوْا) للتوكيد، وبيان حتمية العلاقة بين الغنى المفرط والطغيان البشري (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى).

ثم تأتي الانفراجة البيانية: «وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ» بعد «يُنَزِّلُ الْغَيْثَ». عَبّر عن المطر ابتداءً بـ "الغيث" (لما فيه من معنى الإغاثة والإنقاذ)، ثم سماه "رحمة"، وجعل فعلها «يَنشُرُ»؛ لتصوير المطر كأنه رداء رحمة يُفرش ويُبسط على الأرض الميتة فيحييها، وهو جناس معنوي ومقابلة مع "بسط الرزق" السالفة.

الكناية باليد في "فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ" في قوله تعالى: (وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ)، هذا من باب الكناية عن الذات باستعمال أخص جوارح الفعل والكسب وهي (اليد). فالإنسان قد يعصي بلسانه أو بقلبه أو بفرجه، لكن نُسب الكسب لليد لأنها الأداة الظاهرة الغالبة في مباشرة الأعمال والمظالم، وفيه إقرار بـ "المسؤولية الفردية المطلقة" للإنسان عن اختلال أمنه وحياته.

حقيقة الرزق الكوني والشرعي: يقف شيخ الإسلام ابن تيمية عند قوله تعالى: (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ...) ليبيّن مفهوم الحكمة في المنع والعطاء. يقول ما معناه: إن الله يدبر خلقه بصفات كماله؛ فمن العباد من لا يصلح إيمانه إلاّ الغنى، ولو أفقره لفسد حاله، ومنهم من لا يصلح إيمانه إلاّ الفقر ولو بسط له لطغى وبغى. وبالتالي، فإن قدر الرزق ليس مقياساً للمحبة، وإنما هو ميزان صلاح وإصلاح، محكوم بالاسمين الحكيمين في ختام الآية: «خَبِيرٌ بَصِيرٌ».

أمّا ابن القيم – رحمه الله فيعالج فقه "القنوط" في قوله تعالى: (وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ) في (مدارج السالكين) دلالات قوله: «مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا».

لماذا يؤخر الله الغيث حتى يقع الناس في يأس وقنوط جبلّي؟ يقول: ليظهر عجز البشرية وانقطاع حبال أسبابها المادية بالكلية، فإذا ما تكسرت الأوهام وتعلق القلب بالسبب السماء وحده، نزل الغيث وتجلت صفة الرب تبارك وتعالى: (وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ)؛ أي الوالي الذي يتولى عباده بلطفه عند انقطاع الحيل، المحمود على منعه وعطائه.

المصائب والعفو: عند قوله: (وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ)، يلمح ابن عاشور -رحمه الله- لطيفة اجتماعية ونفسية دقيقة:

المصائب التي تصيب الأمة أو الأفراد إنما هي آثار لذنوبهم وتقصيرهم، لكن من فضل الله الواسع أنه لو آخذ الناس بكل ما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة، فهو يجازي على البعض للتأديب واليقظة (فبما كسبت أيديكم)، ويتجاوز عن الأكثر فضلاً ومنّة (ويعفو عن كثير)، لتظل مساحة الرجاء أوسع من مساحة اليأس.

الدابة والجمع الكوني: يقف الأستاذ محمد قطب عند آية: (ومن آياته خلق السماوات والأرض وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ).

في عصرٍ يتحدث فيه العلم الحديث عن إمكانية وجود حيوات أخرى في كواكب مجاورة، تأتي الآية بلفظ «بَثَّ فِيهِمَا» (أي في السموات والأرض) لتؤكد وجود "الدواب" والحياة في عوالم علوية لا ندركها. غير أن الإعجاز النفسي في الآية يكمن في ربط هذا الخلق العظيم بمعادلة الإعادة والحشر: إن الذي قدر على بث هذه البلايين من المخلقات في أرجاء الأكوان الفسيحة، «عَلَىٰ جَمْعِهِمْ» في صعيد واحد يوم القيامة «قَدِيرٌ» بلا كلفة أو عناء.

مصفوفة السياق البلاغي والمفاهيمي للمقاطع:

| الجملة القرآنية | الأداة البلاغية / الأسلوبية | الأثر التربوي والمقاصدي |
|---|---|---|
| «فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ» | أسلوب شرط بأداة التعليق (إن) | حسم مادة التشكيك؛ فلو كان هذا القرآن افتراءً من محمد لتَدخّل القدر الإلهي قسراً وحال بين قلبه وبين الوعي، فاستمراره نبيّاً يوحى إليه هو صك البراءة الإلهية التامة. |
| «الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ» | التذييل بالأسماء المترابطة اقتران الولاية بالحمد | فالله يتولى عباده برعاية لا قهر فيها ولا استعلاء، بل هي ولاية تفيض إحساناً يستوجب الحمد من العباد طوعاً كالمطر. |
| «وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ» | النفي المؤكد بالباء الزائدة في خبر ما قطع الغرور الإنساني | فمهما تحصن الإنسان بالتكنولوجيا أو القلاع أو الأموال في الأرض، فهو أعجز من أن يفلت من دائرة القدر والجزاء الإلهي. |

خلاصة: تتضافر الآيات لتجعل المؤمن يعيش بين ميزان المراقبة لذنوبه ومستودع الرجاء التام في رحمة ربه. إن الله الذي يحمي دينه ويمحو الباطل بكلماته، هو ذاته الرب اللطيف التوّاب الذي ينزل الغيث ويدبر أرزاق العباد بموازين دقيقة تحميهم من طغيان نفوسهم وبغيهم. الخطة الحركية هنا: فرار كامل إلى الله، توبة مستمرة من كسب الأيدي، استمطار للرحمات بالإنابة، ويقين مطلق بأننا لن نعجز الله في أرضه، وأنه لا ولي لنا ولا نصير من دونه سبحانه.

*( وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (32) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (33) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (34) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (35) فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ

فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (38) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (39) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (41) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (42) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43)

تنتقل بنا هذه الآيات الكريمات في هذا الدرس من سورة الشورى إلى أعلى ذرا الموازين الأخلاقية والاجتماعية في الإسلام، ممتزجةً بالمشهد الكوني الشاخص. فبعد أن تقرر في الآيات السابقة عجز الإنسان في الأرض، ينطلق الخطاب هنا ليعرض آية البحر العجيبة، ليصنع منها جسراً بيانياً يعبر بالبشرية من رهبة القدر الكوني إلى فقه الحركة وبناء المجتمع الراشد القائم على التوازن الدقيق بين "العفو الشهم" و"الانتصار الحازم".

السياق والمقاصد: التحام حركة الكون بحركة المجتمع: يربط البقاعي في (نظم الدرر) هذا المقطع بما قبله برباط مذهل؛ فالله سبحانه لما قال في الآية السابقة (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ)، جاء هنا ببرهان مشهود تراه العرب في رحلاتها، وهو (الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ) (السفن). فمن عجز عن التحكم في حركة الريح والموج، كيف يبارز الله بالبغي؟

ثم ينتقل السياق بـ "الفاء" الفصيحة في قوله (فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ليزهد في حطام الدنيا الذي يسبب البغي والتفرق، ويضع البديل الأسمى: المجتمع الشوري الأخلاقي.

المقاصد الجوهرية: الدستور الأخلاقي للأمة: يرى سيد قطب أن هذا المقطع يمثل "مواصفات الأمة المُعَدّة لحمل الأمانة". إنها موازنة خطيرة بين تهذيب القوة النفسية وتوجيهها؛ فالمجتمع الإسلامي ليس مجتمعاً مستضعفاً ذليلاً يستمرؤ الضيم، بل هو مجتمع قوي ينتصر إذا أصابه البغي، ولكنه في الوقت عينه مجتمع رحيم شوري، يعفو ويصلح عند المقدرة ترفعاً لا عجزاً.

القراءة اللسانية والنحوية: الحذف والتشبيه في "الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ"

(الْجَوَارِ): اسم منقوص (جمع جارية وهي السفينة)، حُذفت ياؤه في الرسم القرآني واللفظ وصلاً ووقفاً تخفيفاً، ودلالة على سرعة جريانها وخفتها على الماء.

(كَالْأَعْلَامِ): الجار والمجرور في موضع نصب على الحالية من "الْجَوَارِ"، والأعلام هنا جمع (عَلَم)، والعَلَم في لسان العرب هو الجبل الطويل المرتفع. وفي هذا التشبيه قلبٌ للمألوف؛ فالسفينة الخشبية المستدقة تظهر في عرض البحر كالجبل الراسي الثقيل، ومع ذلك يجريها الله بلطفه فوق جرف الماء.

القراءة البلاغية والبيانية: بلاغة الطباق والازدواج بين "صَبَّارٍ" و"شَكُورٍ" ذهب ابن القيم في زاد المعاد في قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ):

الحياة مبنية على قطبين: (محنة تستوجب الصبر)، و(منحة تستوجب الشكر). ومشهد السفن في البحر يجمع الأمرين:

إذا ركدت الريح واحتبست السفن، ظهرت حاجة العبد ليكون «صَبَّاراً» (صيغة مبالغة لتكرر الصبر وعمقه).

وإذا جرت الرخاء وحُفظت من الهلاك، تفتقت نفس العبد ليكون «شَكُوراً» (صيغة مبالغة للشكر الثنائي باللسان والجوارح).

إعراب "وَيَعْلَمَ" والسر اللساني لـ "الواو": في قوله تعالى: «أَوْ يُوبِقْهُنَّ... وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ»

قرأ الجمهور «وَيَعْلَمَ» نصب الفعل المضارع بعد واو المعية، وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف العاشر، ورويس. أي: يعلم الذين يكذبون بالقرآن إذا صاروا إلى الله بعد البعث أن لا مهرب لهم من عذاب الله.

قرأ الإمام الحسن البصري ويحيى بن يعمر الفعل ﴿وَيَعْلَمْ﴾ بسكون الميم (الجزم)؛ عطفاً على الفعل المجزوم قبلها ﴿وَيعف عن كثير﴾، لبيان أن كل هذه الأفعال (إسكان الريح، وإهلاك السفن، وعلم الله بحال المجادلين) تقع تحت قدرة الله ومشيئته في ذلك الموقف. والله أعلم.

الأثر الدلالي للفتح (ابن عاشور): النصب ينقل الجملة لتصبح غاية مسوقة لذاتها؛ أي أن وقوع العقاب بإيباق السفن (إهلاكها) يتزامن مع حقيقة علم المجادلين بأنه لا ملجأ لهم من الله إلا إليه، فلا ينفكون عن هذا العلم في تلك اللحظة الكارثية.

*(فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ، وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) هذه صفات المؤمنين المرضيين عند ربهم ، الله اجعلنا منهم.

الجملة الاسمية وصيغة الحصر في (وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ)، التعبير بالجملة الاسمية «وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ» يفيد الثبوت والدوام المستمر.

ذكر الريسوني في كتابه (الشورى في معركة البناء) بعد أن ذكر قول الله تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)، قال: وعندي أن هذه الاستشارة جعلت لتكون حقيقة مقارنة في الوجود لخلق أول البشر، حتى تكون ناموساً أشربته نفوس ذريته، لأن مقارنة شيء من الأحوال والمعاني لتكون شيء ما تؤثر تآلفاً بين ذلك الكائن وبين المقارن. . فالشورى هي أل سنة اجتماعية سنها الله لخلقه ولعباده ليقتدوا بها ويهتدوا بهداها.

ولم يقل "وهم يتشاورون" (بالفعلية)، بل جعل الأمر نفسه عين "الشورى"، وكأن التشاور تحول من سلوك طارئ إلى صفة لازمة وصيغة هيكلية تسبق وتغلف كل تفاصيل حياتهم السياسية والاجتماعية والأسرية.

المشاكلة والمقابلة في (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا): هذا من أعظم أبواب بلاغة "المشاكلة اللفظية". فالقصاص والانتصار بحق ليس "سيئة" في الحقيقة، بل هو عدل وقسط، ولكنه سُمي سيئة لمشاكلة اللفظ باللفظ (لأنه يسوء من نزل به ويشبه الفعل الأول في الصورة)، أو سمي سيئة وإن لم يكن سيئه لتشابههما في الصورة، قال مقاتل: يعين القصاص في الجراحات والدماء، الجارح إذا جرح يقتص منه، وليس هو أن يشتمك وتشتمه.

ثم تأتي المقابلة الفورية لتلطيف الأجواء: (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)؛ ففي الأولى حدّد المقدار بالمثل تماماً (مثلها - ميزان العدل)، وفي الثانية ترك الأجر مفتوحاً من غير تقدير مضافاً إلى اسم الجلالة (على الله - ميزان الفضل)، وإذا كان الأجر المقصود هو من فضل الله العظيم، فما ظنك بعظمته؟

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، مرفوعاً: يُنادِي مُنادٍ يومَ القِيامةِ: مَن كان له أَجْرٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ فليَقُمْ فلْيَدْخُلِ الجَنَّةَ. قالوا: ومَنِ الَّذي أَجْرُه على اللهِ عزَّ وجلَّ؟ قال: العافِينَ عنِ النَّاسِ، ثمَّ قرأَ: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ} [1]. لا يثبت مرفوعا، وقد ذكره البغوي موقوفا على الحسن البصري والله أعلم.

فقه الانتصار وحقيقة العفو: يستدل شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله- بهذه الآيات لتقعيد أصل خطير في السياسة الشرعية وعلم النفس:

---

1- أخرجه ابن أبي عاصم في ((الديات)) (ص52)، والعقيلي في ((الضعفاء الكبير)) (447/3) واللفظ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط))(1998) ، وقال في الدرر السنية: [فيه] الفضل بن يسار لا يتابع من وجه يثبت وروي بإسناد أصلح من هذا، وقال في الإسلام سؤال وجواب: طرقه كلها ضعيفة لا تثبت.

الناس في باب المقابلة ثلاثة أقسام: ظالم يأخذ فوق حقه، ومقتصد يأخذ حقه تماماً، ومحسن يعفو ويترك.

الآية شرعت الأقسام المقبولة: فقوله (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ) مدحٌ لهم؛ لأن المسلم ليس مهيناً ولا ذليلاً، وإظهار القوة يكسر شوكة الباغي فلا يستمرئ الظلم. ولكن هذا الانتصار مقيد بالعدل المستفاد من قوله: (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ). فإذا قدر وتأكد من الإصلاح، ندبه الله إلى الرتبة العليا العرفانية: «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ»، فالعفو مشروط بوقوع "الإصلاح"؛ إذ لو كان العفو يجرئ المجرم على مزيد من الفساد، فإن العقرب هنا تُقمع بالانتصار.

دستورية الشورى قبل الدولة: يقف ابن عاشور عند قوله «وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ» وقفة تاريخية واجتماعية باهرة.

يقول: هذه الآية نزلت في مكة قبل قيام الدولة والكيان السياسي للمسلمين في المدينة. وهذا يدل على أن "الشورى" في الإسلام ليست مجرد نظام حكم سياسي يُخلق مع السلطة، بل هي خلق نفسي، وتربية عقلية، وبنية اجتماعية تنشأ عليها الجماعة المؤمنة في أصعب ظروف استضعافها، لتصبح قادرة لاحقاً على إدارة الأرض بالميزان.

تلازم المغفرة عند الغضب: يقف الأستاذ محمد قطب عند قوله تعالى: «وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ».

إن غفران الإنسان في حالة الرخاء والهدوء أمر ميسور، لكن الإعجاز النفسي في صياغة الأمة يظهر عند اقتران الغضب بالغفران. دخول «مَا» الزائدة للتوكيد في (وإِذَا مَا غَضِبُوا)، وتقديم ضمير المنفصل «هُمْ» (وإذ ما غضبوا هم يغفرون) يفيد التخصيص والتمكين؛ أي هم وحدهم الأقوياء الذين يملكون زمام نفوسهم في وهر الغضب الشديد، فيحولون شحنة الغضب المدمرة إلى طاقة غفران وتجاوز، وهذا هو "عزم الأمور".

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أَحَبُّ الناسِ إلى اللهِ أنفعُهم للناسِ، وأَحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ سرورٌ تُدخِلُه على مسلمٍ، تَكشِفُ عنه كُربةً، أو تقضِي عنه دَيْنًا، أو تَطرُدُ عنه جوعًا، ولأَنْ أمشيَ مع أخ في حاجةٍ؛ أَحَبُّ إليَّ من أن أعتكِفَ في هذا المسجدِ -يعني: مسجدَ المدينةِ- شهرًا، ومن

كظم غيظَه ولو شاء أن يُمضِيَه أمضاه؛ ملأ اللهُ قلبَه يومَ القيامةِ رِضًا، ومن مشى مع أخيه في حاجةٍ حتى يَقضِيَها له؛ ثبَّتَ اللهُ قدمَيه يومَ تزولُ الأقدامُ[1].

وقد يرد على البال التساؤل التالي: ذكر الله في عدة سورة صفات للمؤمنين مجتمعة فيما الذي يميز هذه الصفات في سورة الشورى؟

والجواب: هذه الآيات من سورة الشورى تتميز عن كثير من المواضع التي تعدد صفات المؤمنين بأنَّها لا تعرض صورة المؤمن في جانب التعبد الفردي فحسب، بل ترسم شخصية المؤمن في المجتمع، وفي ميدان العلاقات الإنسانية والصراع مع الظلم. فكأنها تنتقل من بناء القلب إلى بناء الأمة.

فالسياق العام للآيات: افتتحت الآيات بقوله تعالى: ﴿مَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

وفي هذا تأسيس نفسي لكل الصفات التي ستأتي بعد، فمن عرف أن الدنيا متاع زائل سهل عليه: أن يغفر عند الغضب، وأن ينفق مما رزقه الله، وأن يتخذ الشورى منهجا في بيته ومجتمعه وأينما حل وارتحل، والصبر على الأذى عواناً، ولا يَبيعُ دينَه بعَرَضٍ مِنَ الدُّنيا.

كما نبه إلى ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: بادِروا بالأعمالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيلِ المُظلِمِ، يُصبِحُ الرَّجُلُ مُؤمِنًا ويُمسي كافِرًا، أو يُمسي مُؤمِنًا ويُصبِحُ كافِرًا، يَبيعُ دينَه بعَرَضٍ مِنَ الدُّنيا[2].

ولذلك نبه ابن القيم في مواضع عديدة إلى أن أصل الاستقامة هو قصر الأمل ورؤية حقارة الدنيا أمام الآخرة، فالآيات تبني المؤمن من الداخل أولاً، ثم تنقله إلى الميدان الاجتماعي.

ثم تلحظ التدرج البلاغي في رسم الشخصية المؤمنة: تأمل النسق: ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ ثم: ﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾، ثم: ﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾، ثم: ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة﴾، ثم: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾، ثم: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾، ثم: ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾.

هذا ترتيب بديع: بدأ بالقلب: التوكل، ثم النفس: اجتناب الكبائر، ثم الانفعال: الغضب، ثم العبادة: الصلاة، ثم المجتمع: الشورى، ثم المال: الإنفاق، ثم السياسة

---

1 - قال الألباني في صحيح الترغيب: حسن لغيره، أخرجه الطبراني في ((المعجم الأوسط)) (6026)، وأبو الشيخ في ((التوبيخ والتنبيه)) (97)، وقوام السنة الأصبهاني كما في ((الترغيب والترهيب)) للمنذري (265/3) واللفظ له.

2 - أخرجه مسلم (118) من أفراد مسلم على البخاري.

والاجتماع والدفاع: الانتصار من الظلم، إن السورة تبني الإنسان لبنة لبنة حتى يصل إلى موقعه في الأمة.

وهذا من دقائق التناسب التي اعتنى بها البقاعي في (نظم الدرر)، إذ يرى أن ترتيب الآيات ليس ترتيب معانٍ متفرقة، بل بناء متصاعد متلاحم.

لماذا ذُكر الغضب هنا خاصة؟ حيث قال تعالى: ﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾، الغضب هو اللحظة التي تنكشف فيها حقيقة النفس، فالإنسان قد يحسن وهو راضٍ، ويعفو وهو قادر على التأجيل، لكن الامتحان الحقيقي ساعة اشتعال الغضب.

ومن لطائف البلاغة أن الضمير جاء: هم يغفرون، وفيه نوع اختصاص وتوكيد، إن المعنى": أما هم فشأنهم الغفران عند الغضب، وهذا قريب مما يسميه البلاغيون القصر السياقي.

أعجب ما في المقطع: الجمع بين العفو والانتصار: في الظاهر يبدو أن هناك تعارضاً: ﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾، ثم: ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾، ثم: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾، ثم: ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾، ثم: ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾.

لكن هذا من أعمق المواضع القرآنية في فقه التوازن: فابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله- يقرران أن المؤمن ليس ذليلاً ولا منتقماً بطبعه.

بل ينزل كل مقام منزلته، العفو فضيلة، والانتصار عدل، والظلم رذيلة، فإذا كان العفو يحقق الإصلاح فثمّ، ونعِمّ هو.

أما إن كان يزيد الظالم طغياناً فالانتصار مشروع، ولهذا قيد الله العفو بقوله: ﴿فمن عفا وأصلح﴾، إشارة إلى أن العفو المحمود هو الذي ينتج إصلاحاً، أما العفو الذي يشجع الظلم فليس هو المقصود، وهذه لمحة مقاصدية عظيمة.

قوله تعالى: (وأمرهم شورى بينهم)، هذه الجملة من أوجز ما قيل في بناء الأمة، جعل الشورى نفسها وصفاً للأمر كله، فالشورى ليست حادثة تقع أحياناً، بل هي طبيعة النظام الذي يعيشون فيه.

وقد نبه ابن عاشور – رحمه الله إلى أن التعبير يفيد رسوخ هذا المعنى في الجماعة المؤمنة.

ومن الناحية اللغوية: "شورى" مصدر أُقيم مقام الوصف للمبالغة، أي: أنّ أمرهم قائم على التشاور في أصله.

سر الانتقال من الصلاة إلى الشورى: فبعد قوله سبحانه ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة﴾، قال مباشرة: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾

وهذا انتقال عجيب، فالصلاة تربط الإنسان بالله، والشورى تربطه بالناس، فلا يكفي صلاح العبد مع ربه حتى يصلح نظام تعامله مع الخلق.

وهذا من الفروق بين التدين الفردي والإسلام الحضاري، وسورة الشورى من أكثر السور إبرازاً لهذا المعنى.

لماذا خُتم المقطع بالصبر؟ بعد الحديث عن الظلم والانتصار والعفو قال:﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾، فجاءت اللام و"إن" ولام التوكيد: (لَمِنْ عزم الأمور)، وهو توكيد بعد توكيد.

لأن الصبر عند الظلم من أشق ما تطيقه النفوس، وقد قال ابن عاشور إن "عزم الأمور" هي الأمور التي تحتاج إلى قوة إرادة وثبات نفس.

ولو ربطنا عزم قوله تعالى (:﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ بقوله في أوائل السورة (رَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) فذكر أولي العزم من الرسل، لوجدنا أن في هذا تلميح أنّ الصبر والمغفرة من شيم أولئك الرسل، امتازوا بها، وإن كانت من شيم الرسل جميعا. فليس كل أحد يملكها.

الصورة الكلية للمؤمن في هذه الآيات: إذا جمعنا الصفات وجدنا أن السورة رسمت مؤمناً: قلبه معلق بالله: ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾، وسلوكه طاهر: ﴿يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، وأخلاقه رفيعة: ﴿يغفرون﴾، وعبادته مستقيمة: ﴿أقاموا الصلاة﴾، ومجتمعه راشد: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾، وماله نافع: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾، وكرامته محفوظة: ﴿وإذا ما غضبوا هم ينتصرون﴾، وعدله قائم: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾، وإحسانه حاضر: ﴿فمن عفا وأصلح﴾، وصبره ثابت: ﴿ولمن صبر وغفر﴾.

ولذلك يمكن القول إن صفات المؤمنين في سورة المؤمنون تبرز نجاح المؤمن في تزكية نفسه، وصفاتهم في المعارج تبرز ثباته أمام فتن الدنيا والآخرة، وفي الفرقان والذاريات والمعارج تتناول صفاتهم من جوانب مختلفة، أما صفاتهم في سورة الشورى فتبرز نجاح المؤمن في إقامة مجتمع العدل والرحمة والكرامة.

هذه ليست لوحة للفرد المؤمن فقط، بل هي أقرب ما تكون إلى دستور أخلاقي للأمة المؤمنة؛ أمةٍ تجمع بين العبادة والشورى، وبين العفو والعزة، وبين الرحمة والقوة، فلا تذوب في الذل باسم التسامح، ولا تنقلب إلى الظلم باسم القوة. وهذا من أبدع ما صوّره القرآن في رسم الشخصية الجماعية للمؤمنين.

مصفوفة التحليل الدلالي لمقاييس الدستور الأخلاقي:

| الجملة القرآنيّة | الظاهرة الأسلوبية البلاغية | الأثر النفسي والمقاصدي |
|---|---|---|
| «فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» | التعبير بلفظ (المتاع) تقزيم كل حطام الدنيا | فالمتاع هو ما يتمتع به المسافر ثم يلقيه أو يتركه، فلا يستحق أن يُبغى بسببه أو تُخترق من أجله الحقوق. |
| (عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) | تقديم الجار والمجرور على الفعل حصر التوكل والاعتماد على الله وحده | مما يورث الجماعة صواب المقصد وجرأة الانتصار على الظالم دون خوف من قوته. |
| (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ) | دخول (مِن) الاستغراقية على النفي تبرئة ساحة المنتصر بحق | تبرئة مطلقة تامة؛ فلا سبيل عليه لائم، ولا قانون يحاسبه، ولا يد تبسط إليه بالسوء. |
| (ولمن صبر وغفر إن ذلك لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) | التوكيد باللام و(إنّ) وإضافة العزم | بيان أن الصبر والغفران مع القدرة ليس ضعفاً، بل هو شيمة الأقوياء ذوي العزائم المصقولة الكبيرة الذين يقودون التاريخ. |

خاتمة: إن هذا المقطع العظيم يعيد هيكلة الوجدان الإسلامي؛ فلا رهبانية عاجزة تنسحب من الحياة وتترك البغاة يفسدون في الأرض، ولا غطرسة مادية تبغي في الأرض بغير الحق مستغلة أسباب القوة (كالسفن الراسية كالأعلام).

المسلم المعاصر يتحرك في الحياة مستصحباً التوكل، مستنداً إلى الشورى كركيزة مجتمعية، معلناً مفاصلته لكبائر الإثم، حريصاً على إقامة ميزان العدل بالانتصار من البغي، ومتسامياً بـ العفو والإصلاح ليكون أجره خالصاً كبيراً على الله عز وجل.

*(وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ ۗ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ(44) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (45) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ (46) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (47) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ (48) لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا

يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50) ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ(51) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (52) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ(53) )

نصل إلى هذه الخاتمة المهيبة لسورة الشورى، إلى مصبّ الأنهار الكبرى للسورة. فبعد أن دارت الآيات السابقة في فلك التكليف والشورى والانتصار والرزق، يرتد الختام ليحسم المشهد البشري كاملاً عبر بوابتين: بوابة المآل الأخروي الشاخص بذله وحسرته، وبوابة المشيئة والوحي الكوني الشامل الذي يربط الأرض بالسماء عبر وصف القرآن بـ «الرُّوح» و*«النُّور»*.

السياق والمقاصد: فقه الفوات والرجوع إلى المحور: يلحظ البقاعي في (نظم الدرر) أنّ السورة افتُتحت بمحور الوحي وعظمة تدبير الله سبحانه وعظم توحيده، وتُختتم هنا بذات المحور ولكن بعد عرض المشاهد التطبيقية.

*(وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ ۗ) فما له من أحد يلي هدايته بعد إضلال الله له، وهنا ينتقل بنا النص ويأخذنا لنشاهده في مشاهد القيامة، فيقول تعالى: (وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ)، يسألون الرجعة إلى الدنيا.

*(وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا) أي: على النار، (خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ) خاضعين متواضعين، (يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ) خفي النظر، يسارقون النظر إلى النار خوفاً منها وذلة في أنفسهم، (وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ) قيل: خسروا أنفسهم بأن صاروا إلى النار، وخسروا أهليهم بأن صاروا لغيرهم في الجنة، (أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ) لا ينفكون عنه أبداً.

*(وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ) طريق إلى الصواب، وإلى الوصول إلى الحق في الدنيا، والجنة في العقبى، قد انسد عليهم طريق الخير.

لما طلب الظالمون الرجوع: «هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ»، فيعود بنا النسص إلى الأمر الفوري للحياة الدنيا بعد ومضة مشاهد القيامة منبها للتدارك قبل الفوات: (اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ)، فهو تناسق سياقي يزاوج بين "حسرة الفوات هناك" و"فرصة التدارك هنا".

المقاصد الجوهرية: يرى سيد قطب أن المقصد الأسمى لهذا الختام هو "إعادة الأمور إلى نصاب الملكية والمشيئة المطلقة". يبتدئ ذلك بتجريد الإنسان من الأوهام الأخروية، لا شفائع ولا أولياء ينصرونه من دون الله، مروراً بتجريده من التمكين الكوني حتى في ألصق رغباته الفطرية، هبة الأولاد: (لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)، لينتهي الخطاب بإثبات أن الهداية الكبرى والوحي هما محض فضل واجتباء إلهي لإحياء الأرواح، وذلك في قوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله. .)

القراءة اللسانية والنحوية: دلالة تقديم وتأخير "مِّنَ الذُّلِّ" وتنكير "طَرْفٍ خَفِيٍّ" في قوله تعالى: (وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ):

(خَاشِعِينَ): حال أولى من الضمير في "تراهم"، (مِنَ الذُّلِّ): الجار والمجرور متعلق بـ "خاشعين"، و(مِن) هنا سببية؛ أي أن خشوعهم ليس خشوع إجلال وتعبد، بل هو خشوع ناشئ وقسري بسبب الذل الهائل الذي غشاهم.

قوله تعالى: (يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ): جملة حالية ثانية. والتعبير بـ (مِن) الابتدائية مع التنكير يفيد الضيق والقلة؛ فالمنظِر مرعب (النار)، وهم لا يقدرون على فتح أجفانهم بالكامل، بل يسرقون النظر سرقة بفتحة عين ضيقة مستدقة (وهو الطرف الخفي) من شدة الرعب.

أسلوب القصر والتعليق في آية العقم والهبة: (لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ): تقديم الخبر (الجار والمجرور) يفيد قصر الحصر والمسؤولية؛ فلا مالك ولا مدبر ولا هادي سواه سبحانه.

(يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا): قَدّم الإناث تشريفاً لهن وجبراً لما كان يصنع أهل الجاهلية من الوأد والتسخط، وجاء اللفظ نكرة لتنويع الهبة، ثم قال (وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ).

ثم قال سبحانه: (أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا) التزويج هنا هو بالمعنى اللغوي اللساني: (الصنف والقرين)؛ أي يجمع لهم بين الصنفين (ذكوراً وإناثاً) في بطن واحدة أو أولاد متعاقبين.

(۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ) قال البغوي: وذلك أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيا، كما كلمه موسى ونظر إليه؟ فقال صلى الله عليه وسلم: لم ينظر موسى إلى الله عز وجل، فأنزل الله هذه الآية: أي يوحى إليه في المنام أو بالإلهام (أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ) يسمعه كلامه ولا يراه، كما كلمه موسى عليه الصلاة والسلام، (أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا) إما جبريل أو غيره،

(فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ ) أي يوحي ذلك الرسول إلى الموحى إليه بإذن الله ما يشاء (إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)،

قلت: وجميعها حصلت لنبينا صلى الله عليه وسلم، وقد كلم الله نبينا صلى الله عليه وسلم من وراء حجاب كما في حديث الإسراء والمعراج ففرض عليه خمسين صلاة، فمازال يراجعه بعد أن يعود إلى موسى عليه السلام: (قال لي موسى عليه السَّلامُ: فراجِعْ رَبَّك؛ فإنَّ أُمَّتَك لا تُطيقُ ذلك، قال: فراجَعتُ رَبِّي، فوضَعَ شَطرَها، قال: فرَجَعتُ إلى موسى عليه السَّلامُ، فأخبَرتُه، قال: راجِعْ رَبَّك؛ فإنَّ أُمَّتَك لا تُطيقُ ذلك، قال: فراجَعتُ رَبِّي، فقال: هي خَمسٌ وهي خَمسونَ، لا يُبَدَّلُ القَولُ لَدَيَّ، قال: فرَجَعتُ إلى موسى، فقال: راجِعْ رَبَّك، فقُلتُ: قدِ استَحيَيتُ مِن رَبِّي، قال: ثُمَّ انطَلَقَ بي جِبريلُ حتَّى نَأتيَ سِدرةَ المُنتَهى، فغَشيَها ألوانٌ لا أدري ما هي؟ قال: ثُمَّ أُدخِلتُ الجَنَّةَ، فإذا فيها جَنابِذُ اللُّؤلُؤِ، وإذا تُرابُها المِسكُ[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أوَّلُ ما بُدِئَ به رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الوَحيِ الرُّؤيا الصَّادِقةُ في النَّومِ؛ فكان لا يَرى رُؤيا إلَّا جاءَت مِثلَ فلَقِ الصُّبحِ، فكان يَأتي حِراءً فيَتَحَنَّثُ فيه -وهو التَّعَبُّدُ اللَّياليَ ذَواتِ العَدَدِ- ويَتَزَوَّدُ لذلك، ثُمَّ يَرجِعُ إلى خَديجةَ فتُزَوِّدُه لمِثلِها، حتَّى فَجِئَه الحَقُّ وهو في غارِ حِراءٍ، فجاءَه المَلَكُ فيه، فقال: اقرَأْ. . [2].

قوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ) أي: كما أوحينا إلى رسلنا، (أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ) قال ابن عباس: نبوءة، وقال السدي ومقاتل: وحيا، وقال مالك بن دينار: يعني القرآن، فيكون المرة الوحيدة التي سمى الله القرآن روحا، (مَا كُنتَ تَدْرِي) قبل الوحي (مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ) يعني شرائع الإيمان ومعالمه،

(وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا) قال ابن عباس: يعني الإيمان، وقال السدي: يعني القرآن (نَّهْدِي بِهِ) نرشد به (مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ) (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي) أي: لتدعو (إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) يعني: الإسلام،

(صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) أي أمور الخلائق كلها في الآخرة.

البدلية والتعليق البلاغي في "صِرَاطِ اللَّهِ": قوله تعالى: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطِ اللَّهِ»:

إعراب «صِرَاطِ» الثانية: بدل كل من كل (بدل مطابق) من الصراط الأولى. وفائدة هذا التكرار البياني بالبدلية هو التنويه بشرف هذا الطريق؛ فبعد أن أثبت للنبي

---

1 - أخرجه البخاري (3342)، ومسلم.(163) من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه مرفوعاً.

2 - أخرجه البخاري (6982)، ومسلم.(160) وأحمد (25959) بنحوه.

ﷺ وظيفة الهداية الإرشادية والبيانية إلى طريق مستقيم، كشف فوراً أن هذا الطريق ليس من نتاج فكر بشري، بل هو طريق مضاف إلى الذات العلية «صِرَاطِ اللَّهِ»، مما يوجب لزومه حتماً.

القراءة البلاغية والبيانية: الاستعارة المكنية والترشيح في "إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مَنَّا رَحْمَةً"

«أَذَقْنَا»: استعارة مكنية بليغة. شبّه إدراك الرحمة (الأمن، الصحة، الغنى) بذوق الطعام الحلو، وفي هذا تلميح إلى اللذة الفورية السريعة.

«فَرِحَ بِهَا»: الفرح هنا ليس فرح شكر، بل هو فرح بطر وعُجب وغرور.

«وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ»: تأمل المقابلة البلاغية البديعة؛ ففي جانب الرحمة نسب الفعل إلى ذاته العلية سبحانه تعظيماً وإكراماً (أذقنا)، بينما في جانب السيئة والمصيبة بناها للمجهول المعنوي بالوقوع وربطها بكسبهم (تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم). ثم جاء الإظهار في موضع الإضمار فقال: «فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ» ولم يقل (فإنهم كفورون) تعميماً للجنس، ولبيان أن طبيعة الطين الإنساني إذا تخلت عن نور الوحي تميل فوراً إلى جحود النعم عند أدنى محنة.

تسمية القرآن "روحاً ونوراً": يبين ابن القيم في الصواعق المرسلة والروح بلاغة هاتين الاستعارتين:

«وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا... وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا»: «رُوحًا»: لأن الروح البدنية هي مادة حياة الجسد، والقرآن هو مادة حياة القلوب والأرواح؛ فمن رُزق عقل الأرض وعلم الكون وحُرم القرآن، فهو عند الله ميت يمشي على قدميه.

«نُورًا»: لأن النور الحسي تتبدد به ظلمات الليل البصرية، والقرآن نور تتبدد به ظلمات الشبهات والشهوات العقائدية والاجتماعية في تيه الحياة.

وجاء الجمع بينهما ليدل على كمال النعمة: فبالروح تكون الحياة، وبالنور تكون الإضاءة والاستقامة.

مراتب الوحي وقضية (مَا كُنتَ تَدْرِي): مراتب الوحي: يقعد ابن تيمية انطلاقاً من قوله تعالى: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا. .) طرق الاتصال بين الخالق والمخلوق: إما قذف في الروع (وحياً)، أو إسماع صوت دون رؤية الكنه (من وراء حجاب كما كلم موسى)، أو بالواسطة الملكية (أو يرسل رسولاً كجبريل). وهي مراتب محصورة تقطع الطريق على تخرصات الفلاسفة الباطنية وأصحاب الحلول والاتحاد.

«مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ»: يستدل بها شيخ الإسلام لرد شبه المعتزلة، ولتقرير أن الهدى والإيمان تفضل محض من الله ابتداءً، فالنبي ﷺ كان

مجبولاً على طهارة الفطرة والصدق والتوحيد العام، لكن تفاصيل الشريعة، وحقائق الإيمان الإجرائية، وعلم الكتاب، لم تتجلَّ له إلا بـ (الروح والنور) النازلين بالوحي.

التقسيم الرباعي للذرية إعجاز برهاني: في التناظر بين قوله تعالى: (يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) وآية الوحي وهي قوله تعالى: (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا. .)، يلمح ابن عاشور لطيفة سوسيولوجية خطيرة:

الله قسّم أحوال البشر في الإنجاب إلى أربعة أقسام عقلية مستوعبة: (عقيم مطلق، وموهوب إناث محض، وموهوب ذكور محض، ومزوج بينهما). هذا التقسيم الحسي المشهود الذي يعجز الطب والبشر عن التحكم في مساره أو تكييفه قسراً، جاء كدليل واقعي مسكت للمشركين: إن الذي تفرّد بتقدير الأرحام بمشيئته دون تدخّل منكم، هو الذي يتفرد باجتباء الرسل وإنزال مراتب الوحي وتوزيع النور على عباده وفق علمه وحكمته: «إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ».

بلادة "النكير" وأزمة الإنسان المعاصر: يقف الأستاذ محمد قطب طويلاً عند آية «مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ»:

الملجأ: الحصن المكاني، والنكير: الإنكار أو الاستنكار ومحاولة الدفع لوم الموقف.

الإنسان المعاصر يعيش في جاهلية مادية تتوهم القدرة على "إنكار" الحقائق أو التهرب من الأزمات بالتأويل الباطل أو القوة المادية العسكرية، لكن يوم القيامة سيسقط هذا النكير كلياً؛ فلن يجد الإنسان مكاناً يهرب إليه بجسده، ولن تجد جوارحه وميزانه النفسي القدرة على الكذب أو المجادلة الباطلة؛ لأن الشاهد هو الحاكم: «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

مصفوفة البيان الدلالي لخاتمة الشورى:

| الآية | الظاهرة الأسلوبية/ اللغوية | الأثر المقاصدي والتربوي |
|---|---|---|
| (خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ) | حصر الخسارة في الذات والامتداد | الخسارة المالية تُرقع، لكن الخسارة الحقيقية هي أن يفقد الإنسان ذاته بخلودها في العذاب، ويفقد أهله فلا يلتقي بهم في روضات الجنات، وهي الخسارة المطلقة. |
| (فإن أعرضوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) | صيغة المبالغة (حفيظ) في سياق النفي | تسلية وتخفيف عن قلب النبي ﷺ والدعاة من بعده؛ فالمسؤولية محصورة في البلاغ المبين، وليست في قسر القلوب وهدايتها جبراً. |

| | | |
|---|---|---|
| ختم آية تنوع الوحي بقوله تعالى:(إنّه عَلِيٌّ حَكِيمٌ) | التذييل بالوصفين بعد آية التكليم | علو الذات والمقام يمنع الرؤية المباشرة في الدنيا لبشر، وحكمته البالغة تقتضي إيصال حبال شرعه بالرسل لتقوم الحجة. |
| (أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) | افتتاح بأداة الاستفتاح والتنبيه (ألا) وتقديم الجار والمجرور ختم السورة بأعلى صيغ التقرير والتحذير والرجاء؛ | فكل الخصومات، والمحاججات، والشرائع، والأرزاق، والمصائر تصب في قضائه العادل وحده حتماً. |

خلاصة: سورة الشورى بدأت بـ «كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ» وختمت بـ «وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ»، لتدور في حلقة إعجازية محكمة تعلن للعالمين أن هذا القرآن هو قوام الحياة الأخلاقية والكونية للبشرية.

إن الخطة الحركية التي يخرج بها "طالب العلم والقرآن" هنا تتلخص في: الاستجابة الفورية قبل فوات الملجأ، والرضا التام بقسمة الله في الرزق والذرية باعتبارها محض علم وقدرة إلهية، والاستمساك بهذا الوحي (الروح والنور) والدعوة إليه بقوة وثبات؛ لنكون من الأدوات المباركة التي تهدي بإذن ربها إلى «صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ».

*

## سورة الزخرف

### تسمية السورة

(سورة الزخرف): وهو الاسم الأشهر والأكثر تداولاً في المصاحف وكتب التفسير، لورود كلمة (الزُّخْرُفَ) فيها (والتي تعني الزينة والذهب والمتاع) في قوله تعالى: (وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).

كما أطلق عليها سورة (حم الزخرف) مثل بقية الحواميم، وهو الاسم الذي أطلقه عليها الإمام البخاري في صحيحه، والزخرف قيل: هو الديباج (وهو نوع من الحرير الفاخر المزين) لجمال أسلوبها وبلاغته، وقال الإمام البخاري: وَالزُّخْرُفُ الذَّهَبُ، وهو المعنى المروي عن الصحابة، والله أعلم.

وهي سورة مكية بإجماع المفسرين، ما عدا قول نادر لبعضهم في آية واحدة. وقد ورد فيها خلاف طفيف في عدد آياتها، حيث تُعد 89آية عند جمهور العلماء (كالكوفيين والبصريين والمكيين)، بينما تُعد 88آية عند أهل الشام.

**سبب نزول بعض الآيات**

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال : إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال لِقُرَيشٍ: يا مَعشَرَ قُرَيشٍ، إنَّه ليس أحَدٌ يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ فيه خَيرٌ - وقد عَلِمَتْ قُرَيشٌ أنَّ النَّصارى تَعبُدُ عيسى بنَ مَريمَ، وما تَقولُ في مُحمَّدٍ -، فقالوا: يا محمَّدُ، ألَسْتَ تَزعُمُ أنَّ عيسى كان نبيًّا وعَبدًا مِن عِبادِ اللهِ صالِحًا؟! فلَئِنْ كُنتَ صادِقًا فإنَّ آلهتَهم لَكَما تقولونَ !قال: فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ : (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ) [1].

بسم الله الرحمن الرحيم

*(حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4) أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (5) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (6) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (7) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (8) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(10) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (11) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (12) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ(14) )

هذه الافتتاحية المهيبة من سورة الزخرف تمثل وثيقة عقدية ومنهجية كبرى، تتشابك فيها أبعاد اللسان، ومقتضيات السياق، ومقاصد الوحي لتشكّل بناءً بيانيًا يأخذ بمجامع القلوب والعقول.

البعد اللساني والنحوي (النظم والمعنى): تتجلى عبقرية اللسان العربي في هذه الآيات من خلال تقديم الحروف، وعلاقات الأدوات، وبنية الجمل:

الأحرف المقطعة وحروف القسم: القراءة البيانية تبدأ من حم. عند ابن تيمية، هذه الحروف ليست طلاسم بل هي إشارة للتحدي؛ أي أن هذا الكتاب معجز وهو مصاغ من جنس هذه الحروف التي تنطقون بها. وجاءت واو القسم في قوله تعالى (والكتاب) للقسم بالقرآن العظيم المبين الكتاب الذي أبان طريق الهدى من طريق

---

1 – خرجه أحمد (2918) واللَّفظُ له، والطحاوي في ((شرح مُشْكِل الآثار)) (987)، والطبراني (154/12) (12740). صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (329/4)، وحَسَّن إسنادَه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (3208)، وشُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)).(5/86)

الضلالة، وأبان ما تحتاج إليه الأمة من الشريعة، وأمّا جواب القسم فهو قوله تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا).

قوله تعالى: "جعلناه": الجعْل هنا يتعدى لمفعولين (الهاء، وقرآناً). يرى ابن عاشور أن الجعل هنا بمعنى "صيّرناه بوحينا"، ليدل على تشريف هذا القرآن ونظمه، وتوجيهه ليكون بلسان العرب لعلهم يعقلون أسراره.

وقد امتن الله على العرب بإنزال القرآن بلغتهم في سور أخرى كما في سورة الأنبياء، قال تعالى: (لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) [الأنبياء:10]، قوله تعالى: (فيه ذكركم) فُسرت بعدة معانٍ عظيمة؛ منها فيه شرفكم وفخركم إذا آمنتم به وعملتم بما فيه، وقيل: فيه حديثكم وقصصكم وما تحتاجونه من أمر دينكم ودنياكم.

وفي سورة يوسف قال تعالى: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [يوسف:2]، وفي سورة الزمر قال تعالى: (قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) [الزمر:28]، وفي سورة الشعراء قال تعالى: (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) [الشعراء:195].

وفي سورة الشورى قال سبحانه: (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا) (الشورى:7].

لاحظ خاتمة الآية نفسها: (لعلكم تعلقلون) سورة الزخرف وسورة يوسف، وقال تعالى: (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) سورة الأنبياء، استفهام فيه توبيخ واستنكار لمن يعرض عن هذا الكتاب العظيم ولا يستخدم عقله في إدراك ما فيه من منافع ورفعة له في الدارين.

تشكل هذه الآيات وأمثالها نسقاً قرآنياً واحداً يدور حول محورين عظيمين: حقيقة كتاب الله، القرآن (شرفاً وهداية)، وأداة التلقي والاستيعاب (العقل الإنساني)،

القراءة اللسانية والنحوية: "عَرَبِيّاً" و"غَيْرَ ذِي عِوَجٍ" اللسان العربي كأداة تعقل: يرى الإمام ابن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير) أنّ وصف القرآن بـ "العربي" ليس وصفاً جغرافياً فحسب، بل هو "قاعدة لسانية"؛ فالوحي نزل بلسان العرب لأنهم المخاطبون به أولاً، ليكون أقرب إلى أفهامهم وأقدر على استنباط المعاني وفقه مقاصد الخطاب.

نفي التناقض: وفي قوله تعالى: (غَيْرَ ذِي عِوَجٍ) [الزمر: 28]، يكمن الإعجاز في "التركيب اللغوي"؛ فاللفظ (العربيّ) يتميز بالبيان والسعة، و(غير ذي عوج) يدل على التئام الكلم وتساوق المعاني بلا اضطراب ولا تفاوت.

القراءة البلاغية والسياقية: (فِيهِ ذِكْرُكُمْ) موقع الاستفهام الإنكاري: في سورة الأنبياء: [الأنبياء: 10]، تتجلى البلاغة في تفريع (أفلا تعقلون) على (فيه ذكركم)،

فالعقل السليم يقتضي أن من أُعطي كتاباً فيه "شرفه ومجده ورفعته" أن يحرص عليه، وعلى تبليغه والدعوة إليه، فكلمة "ذكركم" تحمل الشرف والرفعة، وتحمل أيضاً معنى "الحديث والذكرى" التي توقظ القلب.

القسم البلاغي (سورة الزخرف): يرى الزمخشري وغيره من أئمة البيان أن افتتاح السور بالحروف المقطعة والقسم بالكتاب هو تعظيم لشأن القرآن وتوطين لنفس السامع لقبول ما فيه من هداية، ليقوده مباشرة إلى التعقل.

التدبر المقاصدي: العلاقة بين "التنزيل" و"التعقل"، العقل مناط التكليف: لفت الانتباه الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في تحقيقهما لمقاصد الوحي إلى أن العقل الإنساني لا يمكن أن يستقل بمعرفة تفاصيل الغيب ومكارم الأخلاق دون "النقل"، وأن القرآن هو النور الذي يُصحح مسار العقل.

فيكون في ذلك معنى قوله تعالى: ، حيث يقول الله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام:122].

الغاية هي التقوى: لاحظ البقاعي في نظم الدرر اقتران "التعقل" في يوسف والزخرف بطلب الهداية والخشية (لعلكم تعقلون)، واقترانها في سورة الزمر بـ (لعلهم يتقون) [الزمر: 28]، مما يعني أن العقل في القرآن ليس مجرد أداة فلسفية للتأمل المجرد، بل هو أداة فاعلة تقود إلى العمل والتقوى والامتثال، وتهتدي بنور القرآن والإيمان.

البعد الحركي والتربوي: استنطاق النص عند سيد ومحمد قطب القرآن كينونة حياة: أشار سيد قطب (في ظلال القرآن) عند حديثه عن هذه الآيات إلى أن القرآن ليس كتاباً نظرياً يُحفظ، بل هو "منهج حياة" حافل بالذكريات والقصص والعبر التي تخاطب الوجدان. فالقرآن يُنزل للإنسان في كل زمان وكأنه يُخاطب واقعه الحالي وتحدياته، قلت: وكل إنسان يشعر أن القرآن يحاطبه، يخاطب شخصه، وهذا من فضل الله، ومما حباه كتابه من الإعجاز.

تحرير الإنسان: ويؤكد محمد قطب في تدبراته أنّ اللغة العربية ببيانها هي الحامل الأمثل للتوحيد ومنظومة القيم، وأن القرآن خاطب العقل الإنساني ليحرره من أسر الخرافة والتقاليد البالية، فكان نزوله عربياً بمثابة تحرير لطاقة "العقل" لتعمل في مسارها الصحيح.

إذا أردنا جمع المعاني في بوتقة واحدة، فإن الله سبحانه وتعالى يخاطب الأمة بأنه أنزل هذا الكتاب ليكون "شرفاً وفخراً وذكراً" لهم، وجعله بلسان عربي مبين

لتنتفي عنه كل شائبة عوج وتناقض، ليكون ذلك كله حافزاً ومحركاً لـ "العقل" ليتفكر ويتدبر، ومن ثم يصل إلى الغاية القصوى وهي "التقوى والخشية".

ويسجل الدكتور طارق السويدان ملاحظة تأثير العرب في حمل القرآن والسنة والدعوة إلى هذا الدين، فلا أروع منهم، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الحضارات السابقة كانت تلوثت، ولوثت وحرفت الدين، كما هو الشأن في الحضارة الغربية والنصرانية التي حرفتها، وكذا الهندوسية، والمجوسية، واليهودية فلا أعظم من اختيار المولى للغة العرب وجزيرة العرب والتي هيأها سبحانه لحمل نواة رسالة محمد الأولى صلى الله عليه وسلم، ويروى عنه صلى الله عليه وسلم: (يا أيُّها الناسُ إن الربَّ واحدٌ، والأبَ واحدٌ، وليستِ العربيةُ بأحدِكم من أبٍ ولا أُمٍّ، وإنما هي اللسانُ، فمن تكلم بالعربيةِ فهو عربِيّ. لكنه حديث ضعيف[1].

لكن صح حديث واثلة بن الأسقع عن النبي صلى الله عليه وسلم: إنَّ اللَّهَ اصطفى مِن ولدِ إبراهيمَ، إسماعيلَ، واصطَفى من ولدِ إسماعيلَ بَني كنانةَ، واصطَفى من بَني كنانةَ قُرَيْشًا ، واصطفى من قُرَيْشٍ بَني هاشمٍ ، واصطَفاني من بَني هاشمٍ[2].

كما صح حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ و سلَّمَ : أيُّ الناسِ أَكْرَمُ ؟ قال : أَكْرَمُهُمْ عندَ اللهِ أَتْقَاهُمْ . قالوا : ليس عن هذا نَسْأَلُكَ ، قال : فَأَكْرَمُ الناسِ و في روايةٍ : إنَّهُ الكريمُ ابنُ الكريمِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابْنُ نبيِّ اللهِ ابنِ نبيِّ اللهِ ابنِ خَلِيلِ اللهِ . قالوا : ليس عن ذلكَ نَسْأَلُكَ ، قال : فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِي ؟ قالوا : نَعَمْ ، قال : فَخِيارُكُمْ في الجاهليةِ خِيارُكُمْ في الإسلامِ إذا فَقِهوا[3].

التشريف والإسناد وعلو مكانة القرآن: في قوله تعالى: (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ). يُبرز ابن القيم هنا شرف القرآن بأربعة مؤكدات وصيغ تشريف: (إنّ، اللام المزحلقة، الظرفية (في أم الكتاب) -وهي اللوح المحفوظ-، والقرب "لدينا"، وَقَالَ قَتَادَةُ: (فِي أُمِّ الْكِتَابِ) جُمْلَةِ الْكِتَابِ، أَصْلِ الْكِتَابِ، ووصفه بـ (عليّ) أي رفيع القدر عن مطاعنكم، وحكيم أي محكم لا خلل فيه، أو ينطق بالحكمة، أن يخبر عن منزلة القرآن وشرفه، أي: إن كذبتم بالقرآن يا أهل مكة فإنه عندنا لعلي رفيع شريق محكم من الباطل.

---

1 – أخرجه ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (21/ 407)، وأبو الحسن العسكري في ((حديثه)) (223)، وابن القيسراني في ((صفة التصوف)) (635) بلفظه تامًا.وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة.

2 – أخرجه مسلم (2276) دون قوله: ((إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل))، وأخرجه الترمذي (3605)، وأحمد (16987) كلاهما بلفظه.

3 – أخرجه البخاري في ((الأدب المفرد)) (129) واللفظ له، والدارمي (229)، وأبو يعلى (6562) باختلاف يسير. وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

بلاغة الاستفهام الإنكاري: في قوله تعالى (أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا)؛ الفاء عاطفة على مقدر، والهمزة لإنكار واستبعاد الواقع. المعنى اللغوي لـ "الضرب صفحاً" مستعار من تحويل الراكب صفحة عنق دابته عن الطريق. والنحاة يبرزون هنا إنابة المفعول المطلق صفحاً مناب المصدر المؤكد، أي إعراضاً تاماً، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: (أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ) أَيْ: تُكَذِّبُونَ بِالْقُرْآنِ ثُمَّ لَا تُعَاقَبُونَ عَلَيْهِ.

النسيج البلاغي والجمالي (علم البيان والمعاني): يزخر النص بجماليات تصويرية وطاقات تعبيرية هائلة، اهتم بها ابن القيم والبقاعي بشكل خاص:

المقابلة والسرد التاريخي: يربط البقاعي (صاحب نظم الدرر) بين علو الكتاب وسفاهة المكذبين، فينتقل النص إلى الموازنة: (وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ، وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

أوضح سيد قطب (في ظلال القرآن)؛ حيث يعرض النص "موكب الرسالة المستهزأ به عبر التاريخ" كشريط متحرك يعزي النبي ﷺ ويهدد الطغاة في قوله تعالى بعدها: (فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ).

*(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ).

الكناية والتشبيه الإحيائي: في المشهد الكوني الرائع: (فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ). استعارة "النشور" (الإحياء بعد الموت) للأرض الجافة بعد المطر، ثم الربط الجازم بالكاف كذلك لتقريب فكرة البعث الذهنية برؤية حسية مشهودة.

التحليل السياقي والروابط المناسباتية: يتميز المنهج السياقي عند البقاعي وابن عاشور برصد التحام الآيات:

السياق العام للسورة: سورة الزخرف تعالج زيف المقاييس المادية (الزخرف، الذهب، الجاه البشري) في تقييم الحق. لذا بدأت ببيان "الميزان الحقيقي للمكانة" وهو الكتاب العلي الحكيم، لا زخارف الدنيا.

التدرج من النجدة العقلية إلى النعمة الحسية: بدأت الآيات بالاحتجاج بالقرآن واللسان والعقل لعلكم تعقلون، فلما أعرضوا، نقلهم السياق إلى آيات الآفاق التي يقرون بها ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم.

بناءً على هذا الإقرار، يمتن الله عليهم بتهيئة الأرض مهداً، وتسيير السبل، وإنزال الماء، وخلق الأزواج كلها (الأنواع والذكر والأنثى)، ليدركوا أن من سخر هذا الكون لا يجوز أن يُشرك به.

المقاصد القرآنية والتربوية (ظلال الآيات): هنا تبرز بقوة مدرسة سيد قطب ومحمد قطب في استجلاء المقاصد النفسية والواقعية للنص:

مقصد رحمة الله وعدم التخلي عن البشر: يبيّن سيد قطب في قوله تعالى: (أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ) لفتة حانية عظيمة؛ فمهما أسرف البشر في الطغيان والصد، فإن رحمة الله تقتضي ألا يُحرموا من حبل النجاة (الذِّكْرَ)، وألا يتركهم الله لضلالهم لمجرد أنهم أسرفوا. إنه إلحاح الرحمة الإلهية بالهداية.

تربية الوعي بالنعمة وتحرير المحسوس من العادة: يتوقف محمد قطب عند ظاهرة "بلادة الحس تجاه النعم المعتادة". فالإنسان يركب الفلك (السفن) والأنعام، ويمر على الأرض الممهدة كأشياء عادية. القرآن هنا يعيد صياغة وعي الإنسان ليرى صنع الله في حركته اليومية:

*(وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ، لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ)

لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه: المقصد الاستخلافي والرد إلى الآخرة: البلاغة المقاصدية تتجلى في دعاء الركوب المذكور (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون). الربط بين "الاستواء على ظهر الدابة أو المركب" وبين "الانقلاب إلى الله" هو قمة التوجيه المقاصدي: فالرحلة الأرضية من مكان لآخر تذكرك بالرحلة الكبرى والرحيل النهائي إلى الله، لئلا يطغى الإنسان بما ملك من وسائل القوة والتكنولوجيا (الزخرف البشري).

خلاصة: القطع البيانية في هذه الافتتاحية بدأت بـ اللسان والذكر القولي (قرآناً عربياً)، وانتهت بـ الحركة والذكر العملي النفَسِي (وإنا إلى ربنا لمنقلبون). يبرهن النص من خلال هذا النظم المحكم أن هذا الكتاب نزل بعلم الله الحكيم، ليأخذ بيد "الإنسان المتحرك في الأرض" ويربط قلبه وعقله بـ "السماء"، محطماً مقاييس المادة والبطش والدنيا أمام جلال الآيات الكونية والقرآنية.

*(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (15) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ (16) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17) أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (19) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ(22) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (23) ۞ قَالَ

أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (24) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(25) )

تنتقل بنا هذه الآيات من سورة الزخرف من جلال التذكير بالنعم الكونية والمنّة بالكتاب النبوّي، إلى جبهة مواجهة صارمة وعنيفة مع أوهام العقل الجاهلي وتناقضاته النفسية والفكرية.

البعد اللساني والنحوي (دلالات التراكيب وصيغ الأفعال): يكشف التحليل اللغوي والنحوي عن مواطن الإدانة الحاسمة للمشركين:

إعجاز التعبير بـ (جُزءاً) في قوله تعالى (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا). يذهب ابن تيمية في لفتة عقدية لغوية إلى أنّ "الجزء" هنا يُقصد به الولد؛ لأن الولد جزء من والده كما في حديث المسور بن مخرمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: فاطِمةُ بَضعةٌ مِنِّي، فمَن أغضَبَها أغضَبَني[1].

واختيار لفظ (جزءاً) النكرة يفيد التقبيح والتشنيع؛ إذ كيف يجرؤ مخلوق أن يقتطع من عباد الله جزءاً يجعله شريكاً أو ولداً لله، وهو الأحد الصمد المنزه عن التبعيض والتجزئة؟!

سر الاستعلاء بـ "أصفاكم": في قوله تعالى: (أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ)؛ صيغة الفِعل أصفاكم، من الاصطفاء وهو تنقية الخالص، تحمل تهكماً لغوياً لاذعاً، فالهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي، والمعنى: كيف تجعلون لله الأدنى والأقل في نظركم، وتستأثرون بالأخلص والأفضل؟!، وفيه تعريض باستخفافهم بالنبات.

*(إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)، في سورة النحل قال تعالى (وإذا بشر أحدهم بالأنثى)، وهنا قال سبحانه: َإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا).

الآيتان الكريمتان تشتركان في سياق عرض تناقضات المشركين وادعاءاتهم الباطلة في نسبة البنات لله عز وجل. إلاّ أن تنوع التعبير بين سورة النحل وسورة الزخرف يعود إلى الفرق السياقي والمقاصدي في بنية كل سورة، وهو ما يبرز إعجاز القرآن في دقة الاختيار اللفظي:

أولاً: القراءة السياقية والمقاصدية (لماذا اختلف التعبير؟) في سورة النحل (الأنثى): السورة تُعرف بسورة "النعم"، ومقصدها الأساسي هو إثبات توحيد الله والرد على المشركين في تشريعاتهم الباطلة، لذلك جاء التعبير بـ (الأنثى) ليفضح واقعهم الاجتماعي والنفسي المريض، فهم يأنفون من "الأنثى" في واقعهم الخاص، ثم ينسبون

1 – أخرجه البخاري (3714)، ومسلم (2449)

هذا الجنس ذاته إلى الله تعالى، هذا التناقض الصارخ يُستخدم كحجة عقلية دامغة لإثبات بطلان أفعالهم،

في سورة الزخرف (بما ضرب للرحمن مثلاً): مقصد السورة الأساسي هو التنزيه والتوحيد الخالص وإبطال الشرك، السياق هنا يتحدث عن الملائكة الذين زعم المشركون أنهم بنات الله، فـ "ضربوا" لله هذا "المثل"، حيث زعموا أنّ الملائكة بنات الله.

لذلك جاء التعبير بـ (بما ضرب للرحمن مثلاً) ليوجه الخطاب النقدي نحو الفعل الاعتقادي الباطل نفسه، أي: كيف يجرؤون على ضرب الأمثال لله وينسبون إليه ما يكرهون من البنات؟

ثانياً: الإضاءات البلاغية واللسانية والنحوية، دقة اختيار الفعل (بُشِّر):البشارة في أصل اللغة هي الإخبار بما يسر، واستخدامها في الحالتين يحمل تهكماً وسخرية بهم، حيث إن ما يُفترض أن يكون خبراً ساراً (وهو الولد) يتحول عندهم إلى مصدر للغم والحزن.

فكان التعريض بالتهكم في (النحل) كما يُشير الإمام ابن عاشور في (الحرير والتنوير) أن استخدام فعل "بشّر" يفيد التعريض بالتهكّم بهم؛ لأن ولادة المولود في الأصل نعمة، فإذا كان هذا حالهم عند سماعها، دلّ على عمق الانحراف الفطري والنفسي لديهم.

إعراب (ظل) و(مسوداً): في قوله (ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً)، الفعل "ظل" يفيد الاستمرار والتلبس بالحال في وضح النهار، وكلمة "مسوداً" ليست دلالة على اللون الأسود الحقيقي للبشرة، بل هي كناية بليغة عن الكآبة، وانقباض الوجه، وتغير لونه شحوباً وحزناً لحظة تلقي النبأ، وهو تعبير عربي معروف، قوله تعالى: (وَهُوَ كَظِيمٌ)؛ جملة حالية باسم فاعل أو صفة مشبهة تفيد امتلاءه بالغيظ والكمد المكتوم، و"كظيم" تعني ممتلئاً غيظاً وحزناً، يكتمه في صدره دون أن يبوح به.

اسم الرحمن في سورة (الزخرف): تكرار اسم الجلالة "الرحمن" في سورة الزخرف (5 مرات) لم يأتِ عبثاً، بل لتقبيح فعلهم؛ فكيف ينسبون البنات لهذا الإله "الرحمن" الذي وسعت رحمته كل شيء، وهم في الوقت نفسه يأنفون منها لأنفسهم؟!

الإمام البقاعي في (نظم الدرر)، يرى أن اختلاف اللفظين يتناسب مع ما سيقت له السور. ففي النحل سيق لبيان جهلهم، وفي الزخرف سيق لبيان عظيم جرمهم في حق الله، أمّا سيد ومحمد قطب (في ظلال القرآن)، فيركزان على التحليل النفسي والاجتماعي لهذه الظاهرة؛ حيث يؤكد أنّ هذا التعبير يصور مدى "الانفصام" بين الواقع النفسي للمشركين (استحقار الأنثى) وبين تصوراتهم الاعتقادية (الملائكة بنات الله).

أمّا ابن تيمية وابن القيم فيستدلان بهذه الآيات لإبطال "القياس الفاسد" عند المشركين، حيث قاسوا الخالق على المخلوق، وجعلوا له الشبيه والمثيل، وهو ما يتنافى مع كمال التنزيه.

*(وَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ، وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ)

المبالغة في الحالية والصفة: في قوله تعالى: (وهو كظيم)، وفي قوله تعالى: (وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ)؛ اختيار (غير مبين)، اسم فاعل من أبان، صفة كاشفة لطبيعة الضعف في التعبير والمحاجة عند النساء لطبيعة عاطفتهن، مما يزيد من تناقضهم.

*(وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)، يخرصون أي: يكذبون.

وعدوله سبحانه عن كلمة (يكذبون) إلى (يخرصون) يمثل أحد أسرار الإعجاز القرآني في الدقة اللغوية، الاختيار والعدول هنا لم يأتِ اعتباطاً، بل هو انتقال من مجرد نفي صدق الكلمة (الكذب) إلى وصف حالة ذهنية ونفسية متأصلة في عقول المشركين، وهي (الخرص).

القراءة اللسانية والاشتقاقية في اللسان العربي، الخَرْصُ في أصله اللغوي يعني: الحَزْرُ والتخمين والحدس، كأن تقول: "خرصت النخل" إذا حزرت كم فيه من الرطب. فاستُعمل (يخرصون) بدلاً من (يكذبون) للإشارة إلى أن أقوالهم ومزاعمهم (في نسبة البنات لله أو عبادة الأصنام) لا تنطلق من فراغ مطلق، بل هي تخمين وحدس وتوقع بلا دليل.

أمّا البعد البلاغي والدلالي في الفرق بين الكذب والخرص، فهو أنّ الكذب: هو الإخبار بخلاف الواقع مع العلم به. وقد يكون الكاذب مستنداً إلى تخطيط وتدبير ومكر أمّا الخرص: فهو ادعاء القول بلا مستند علمي ولا برهان عقلي أو نقلي، فالقائل هنا يطلق الكلام جزافاً بناءً على الظن والشك والهوى، ولذلك؛ فإن استخدام (يخرصون) أشد دلالة على التهافت والتخبط؛ لأنها تصور حال من يبني عقيدته ومصيره على مجرد "التخمين" في أمور غيبية لا مجال فيها للظن، مما يجعلهم في قمة الجهل والتفاهة الفكرية.

البعد النحوي والسياقي (الآية وما قبلها)السياق القرآني جاء للرد على زعم المشركين الباطل بأن الملائكة هم بنات الله، واحتجاجهم الفاسد بالقدر: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾

ثمّ جاء التعقيب الإلهي القاطع: ﴿مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾. وكلمة (علم) هنا جاءت نكرة في سياق النفي لتفيد الاستغراق (أي نفي أي نوع من أنواع العلم، لا العقلي ولا النقلي)، ولما نفى عنهم العلم بالكلية، أردفها بالفعل المضارع (يخرصون) الذي يدل على التجدد والاستمرار في تخمينهم الباطل، وعدم استنادهم لأي حجة أو دليل.4

سيد قطب ومحمد قطب (في مدرسة التدبر الحركي والدعوي):يُركزان في ظلالهما على البعد النفسي والسلوكي؛ فالتعبير بـ(يخرصون) يكشف الحالة الهزيلة والخواء الروحي والعقلي الذي يعيشه المشركون. فهم ليسوا أصحاب منهج أو حجة يقارعون بها الأنبياء، بل هم مجرد (خرّاصين) يتخبطون في الظلمات ويقولون القول بلا يقين، مما يستوجب تسفيه رأيهم والتحذير من طريقتهم.

*(أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ، بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ، وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ)

الفرق النحوي والدلالي بين "مهتدون" و"مقتدون": في الآية (22) (وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ)، باسم الفاعل المكتسب ، بينما حكى عن المترفين في الآية (23): (وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ)، يلمح ابن عاشور أن العامة يتوهمون الهداية في التقليد، أما المترفون فيهمهم "الاقتداء" الأعمى والمحافظة على النمط الطبقي والاجتماعي وآثار الآباء لحماية مصالحهم.

النسيج البلاغي والجمالي (المعاني والبيان والظلال النفسية): تتألق هنا مدرسة التوجيه البلاغي والتصوير النفسي عند ابن القيم وسيد قطب:

التهكم والتقريع بالواقع الاجتماعي: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا)، يستحضر سيد قطب هنا مشهداً حياً متحركاً؛ فالقرآن يواجههم بمرآة واقعهم ونفسيتهم، كيف تنسبون لله ما تفرّون منه وتخجلون وتسوّد وجوهكم كلفاً وغماً بسببه؟! وتسمية الولد هنا بـ ب(مَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا) إيجاز بليغ ومتهكم في غاية الروعة، كأن الأنثى عندهم أصبحت مجرد "مثَل سوء" يهربون منه.

الالتفات العنيف في الشهادة: قوله تعالى: (أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ)، ينتقل النص فجأة من الحديث عنهم بضمير الغيبة إلى استفهام توبيخي مفاجئ ومباشر (أشهدوا خلقهم؟) ثم الوعد الصارم بالجملة الاستئنافية المؤكدة بالسين (ستكتب شهادتهم ويُسألون)، مما يوقع في قلب السامع الرهبة والخوف من عاقبة الكذب على الغيب.

التحليل السياقي والروابط المناسباتية (نظم الدرر): يربط البقاعي آيات هذا المقطع بما قبلها وما بعدها برباط وثيق:

سياق الاحتجاج بالمناقضة: بعد أن ثبت في الآيات السابقة أنهم يقرون بأن الله هو الخالق الرازق والمنعم (ليقولن خلقهن العزيز العليم)، يسوق السياق هنا أعجب تناقضاتهم؛ فهم يقرون بربوبيته، ومع ذلك يوزعون صفات النقص عليه فيجعلون له البنات، ويجعلون الملائكة إناثاً، ثم يتنصلون من المسؤولية بالاحتجاج بالقدر الجبري البدعي (لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم).

علاقة المترفين بالزخرف: هذا المقطع هو التمهيد المباشر لعلة نزول السورة (الزخرف). فالتكذيب قائم على تقليد الآباء والمحافظة على المظهر الجاهي والمادي، ولذلك خصّ الله مترفوهَا بالذكر؛ لأن الترف المادي يعمي عن رؤية الهدى ويمسك العقل بأغلال التقليد.

المقاصد القرآنية والتربوية والواقعية: يركز محمد قطب والعلماء المقاصديون على الأبعاد النفسية والاجتماعية لهذه المحاجة:

إبطال العقلية الخرافية والخرص: مقصد القرآن هو تحرير العقل البشري وإعادته لوسائل التلقي الصحيحة: إمّا العلم والمشاهدة (أشهدوا خلقهم)، أو النقل الموثق والكتاب (أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ). وما عدا ذلك فهو رجم بالغيب وخرص وكذب (إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ).

تفكيك عقلية "التقليد الأعمى" وعقدة الآباء في قوله تعالى حكاية عنهم: (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ)، يبرز هنا مقصد التحرر العقلي؛ فالجاهلية في كل عصر ليست فترة تاريخية، بل هي "منهج تفكير" يعتمد على إلغاء العقل والاتكاء على الموروث البيئي والاجتماعي الخاطئ لمجرد أنه قديم ومألوف.

*(۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ)

سنّة الترف والصد عن الحق: تفضح الآيات التلازم الحتمي بين "الترف" و"العمى عن الحق". المترفون في كل أمة هم أول من يقاوم الأنبياء والمصلحين؛ لأن الحق يهدد امتيازاتهم الطبقية، ومكتسباتهم القائمة على الباطل، فكان ردهم صبيانياً وعنيفاً، لا يحمل شبهة علمية، بل مصادمة وقحة: (وإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ).

خاتمة التهديد ومآلات الطغيان: تختم الآية هذا الجدال العقيم بعبارة حاسمة ووجيزة: (فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ).

الفاء هنا تفيد السببية والتعقيب؛ أي أن الانتقام كان النتيجة الفورية والحتمية لإصرارهم على التكذيب الأعمى. وصيغة الأمر فانظر توجيه لكل عقل بصير عبر العصور ليتأمل مصارع الطغاة والمترفين؛ ليعلم أن "الزخرف" والمكانة المادية التي تذرع بها المترفون لم تغنِ عنهم من الله شيئاً عندما حقّت عليهم كلمة العذاب.

*(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28) بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (29) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (30) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (32) وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ(33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (34) وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35) وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (37) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38) وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (39) أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (40) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (41) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (42) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (43) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (44) وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ(45) )

هذه الآيات الكريمة من سورة الزخرف تمثل دفقاً شعورياً وفكرياً هائلاً، وتحمل في طياتها موازين مستقيمة تُهدم بها قيم الجاهلية المادية وتُبنى عليها قيم التوحيد الخالص.

أولاً: السياق والمقاصد العامة (الرؤية الكلية): تتنزل هذه الآيات في سورة "الزخرف"، وهي سورة مكية تعالج قضية "المقاييس الزائفة" التي يقيس بها أهل الجاهلية الحقائق.

المقصد الرئيس: تحطيم "المذهب المادي النفعي" الذي يجعل المال والجاه معياراً لكرامة الإنسان أو لأحقية الرسالة، وإحلال "المعيار الرباني" مكانه (الهدى، والتقوى، والوحي).

بنية السياق: يبدأ السياق من التجذر التاريخي للتوحيد (قصة إبراهيم)، ثم ينتقل إلى الواقع الجاهلي المصطدم بالوحي تعللاً بفقر النبي ﷺ، ويرد الله عليهم ببيان تفاهة الدنيا وزخرفها، ثم يحذر من عاقبة الغفلة وصاحبها (القرين)، لينتهي السياق بالأمر بالاستمساك بالوحي لأنه مصدر العز الحقيقي.

ثانياً: القراءة التدبرية والبلاغية والسياقية (مقسمة حسب المقاطع): المقطع الأول: المحاكمة التاريخية والامتداد العقدي: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾

اللسانيات والنحو: جاء التعبير بالمصدر ﴿بَرَاءٌ﴾ بصيغة المفرد المذكر للمبالغة (أي أنا عين البراءة)، ولم يقل "بريء"؛ ليدل على أن براءته من الشرك مستوعبة لكيانه كله.

الأسرار البلاغية: في الاستثناء ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ التفات بديع؛ فلم يقل "إلاّ الله"، بل عدل إلى صلة الموصول والفعل لبيان علة الاستحقاق للعبادة، فـ "الفاطر" (الخالق من العدم) هو وحده المستحق للعبادة.

وفي قوله ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ السين للمستقبل القريب المحقق، وثقة تامة وتوكل مطلق، وهو ما يعلق عليه ابن القيم بأن "الهداية هاهنا هي هداية الدلالة والبيان وهداية والتوفيق والإرشاد معاً، وهداية الروح والبدن معاً كذلك.

المقصد العقدي: يذكر ابن تيمية أن كلمة إبراهيم هذه هي حقيقة "لا إله إلا الله"، فـ ﴿بَرَاءٌ﴾ هي النفي (لا إله)، و*﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾* هي الإثبات (إلا الله).

*(وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ) أي: وجعلُ هذه الكلمة ﴿بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ (ذرية إبراهيم) (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) لعل أهل مكة يتبعون هذا الدين ويرجعون عمّا هم عليه إلى دين إبراهيم، وقال السدي: لعلهم يتوبون ويرجعون إلى طاعة الله عز وجل.

قال القرطبي: يعني: وجعل وصية إبراهيم التي أوصى بها بنيه باقية في نسله وذريته، وهو قول الله عز وجل: (وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [البقرة:132]، وقال ابن زيد: يعني: (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ) [البقرة:131] ،

سياق آية الزخرف يُبطل حجة قريش؛ فأنتم تزعمون أنكم على مِلة إبراهيم، فلماذا تركتم "الكلمة الباقية" وتمسكتم بالتقاليد الزائفة؟

*(بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ، وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: يَا عَمُّ، إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا. قَالَ: لَمَ؟ قَالَ: لِيُعْطُوكَهُ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتُعْرِضَ لِمَا قِبَلَهُ قَالَ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا. قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ قَالَ: وَمَاذَا أَقُولُ «فَوَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ

هَذَا وَوَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ» قَالَ: لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ. قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: " هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ يَأْثُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ فَنَزَلَتْ {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} [المدثر: 11] [1]

المقطع الثاني: جدلية الوحي والمادة: في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لولا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾

التناسب: يذكر البقاعي في (نظم الدرر) أنّ قريشاً لم تجد عيباً في ذات القرآن، فشهدت عقولهم بأنه الحق، لكن (قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ)، أي يفرق بين الأخ وأخيه فهذا يومن وهذا يكفر.

وهنا يبين الله سبحانه أن مشكلتهم لم تكون مع القرآن، بدليل قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ...﴾، لكن مشكلتهم كانت في "حامل الوحي"؛ لأن مقاييسهم مادية بحتة القريتان: مكة والطائف، والرجل العظيم قيل: الوليد بن المغيرة في مكة أو عروة بن مسعود الثقفي في الطائف.

الرد الصاعق بالاستفهام الإنكاري: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟ هنا قمة التهكم بمقاييسهم. يقول ابن عاشور في التحرير والتنوير: "تقديم الضمير ﴿أَهُمْ﴾ لإفادة التخصيص والإنكار، أي: أبلغت بهم الوقاحة والغرور أن يتولوا قسمة النبوة التي هي أعلى مراتب الرحمة الإلهية؟!".

الموازنة اللطيفة: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: إذا كنا نحن الذين دبرنا شؤونهم المادية التافهة، (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) لحكمة التساخر الإنساني والتعاون المعيشي ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾)، فكيف نترك لهم قسمة النبوة والوحي؟!

وفي ظلال الآية: يفيض سيد قطب هنا ببيان أن التفاضل في الرزق والجاه في الدنيا ليس معياراً لكرامة الذات عند الله، بل هو "توزيع وظائف" لعمارة الأرض، أمّا معيار القيمة الحقيقي فهو ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ النبوة، الإيمان، والآخرة.

المقطع الثالث: سيكولوجية الزخرف وفلسفة الابتلاء: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ...﴾

---

1 – أخرجه الحاكم في المستدرك (3872) وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ» ووافقه الذهبي.

البلاغة التصويرية: ترسم الآيات مشهداً ترفياً باذخاً (سقف من فضة، معارج أي: مصاعد، أبواب، سرر، زخرف أي: ذهب). هذا الإطناب في ذكر تفاصيل الترف يهدف إلى تقليل شأنه وتحقيره في عين المؤمن.

التعليل والسنن النفسية: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: لولا أن يفتتن البشر جميعاً فيكفروا طمعاً في هذا المتاع، لصببنا الدنيا صباً على الكافرين لهوانها علينا.

محمد قطب ومدرسة الموازين: يعلق الأستاذ (في ظلال السنن الإلهية) بأن هذه الآية تكشف زيف "الفتنة بالغرب المادي" أو المترفين؛ فالمتاع المادي ليس دليلاً على رضا الله، بل قد يكون علامة على الإهمال أو الاستدراج، فالقاعدة الحاسمة: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

المقطع الرابع: قانون العقاب النفسي والعمى الروحي: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾

اللسانيات وعلم الدلالة: الفعل ﴿يَعْشُ﴾ من العشاوة، وهي ضعف البصر أو التغافل (التظاهر بالعمى). لم يقل "من يعمَ"، بل "من يتعامى ويغض بصره التفاتاً للزخرف".

الجزاء من جنس العمل: عقوبة التغافل عن الوحي عقوبة وجودية مرعبة: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾، والتقييض فيه معنى الإحاطة والالتصاق كقشرة البيضة.

التناقض المعرفي (المأساة): ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾!

هذا هو "الضلال المركب"، حيث يظن المحجوب عن هدى الله أنه على الحق، وتلك أشد حالات الخداع النفسي خطورة.

الحوار الوجداني الصادم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾، تثنية المشرق تغليب للمشرق والمغرب، وهو أبعد مدى يدركه البصر، لكن الأمنية تأتي ولات حين مناص: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾. الاشتراك في المصيبة في الدنيا يواسي،

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة *** يواسيك أو يسليك أو يتوجعُ

أما في الآخرة فلا مواسي، ولا سالي، والاشتراك لا يُخفف العذاب.

المقطع الخامس: التثبيت الإلهي ومصدر العز الحقيقي: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

الفاء الفصيحة وبلاغة الاستمساك: الفاء في ﴿فَاسْتَمْسِكْ﴾ جاءت لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ بما أن الدنيا زخرف زائل، وبما أن المعرضين صُمٌّ وعُميٌ لا هداية لهم، فما عليك يا محمد إلاّ الاستمساك. والصيغة (استمسك) تدل على شدة التمسك والاعتصام بالوحي في وجه عواصف المادية الجاهلية.

الرؤية الاستراتيجية للعزة: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾: "الذكر" هنا يحمل معنيين عظيميْ الدلالة:

التذكير والشرف: أي إن هذا القرآن هو مصدر شرفكم، ورفعتكم، وخلود ذكركم بين الأمم، وقد كان، فما عُرفت العرب إلا بالقرآن زدين الإسلام.

وفي مستدرك الحاكم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله [1].

المسؤولية: ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ سؤال محاسبة عن هذا الشرف وهذا الوحي. المحاكمة التاريخية الكبرى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾.

يقول ابن تيمية: هذا إحالة على الإجماع الإنساني النبوي؛ فالتوحيد هو القاسم المشترك والأصل الأصيل لكل الرسالات، والشرك بدعة طارئة وزخرف زائف لا جذور له.

خلاصة المقاصد والظلال الإيمانية: التحرر من ضغط الواقع المادي: المؤمن لا تهزه المظاهر، ولا يستصغر نفسه أمام أصحاب المليارات والقصور والزخارف، لأن ميزانه هو "رحمة ربه" المتمثلة في الوحي.

خطورة الغفلة التدريجية: (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ) تبدأ بخطوة تهاون وتنتهي بـ "قيادة شيطانية كاملة" للذات الإنسانية تنحرف بها وهي تحسب أنها مهتدية.

الهوية والشرف: القرآن "صناعة وعي ثقيلة" للأمة، وهو سر وجودها وشرفها التاريخي والحضاري (ذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ).

*(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ(47) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (50) وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ

---

1 – قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين لاحتجاجهما جميعا بأيوب بن عائذ الطائي وسائر رواته ، ولم يخرجاه.

تَجْرِي مِن تَحْتِيۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (56) ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (59) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ(60) إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (61) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (62) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ(64)

هذا الامتداد من سورة الزخرف يمثل الانتقال من "التقرير النظري" للمقاييس والسنن النفسية والمادية، إلى "العرض التاريخي المشهدي" لتطبيق تلك السنن عبر نموذجين مفصليين في تاريخ النبوات: نموذج موسى مع فرعون (العربدة المادية الطاغية)، ونموذج عيسى ابن مريم (الجدل العقدي ومحاكمة الانحرافات).

الرابط السياقي والمقصد العام: الاتصال بالسابق: في الآيات السابقة، تعللت قريش بفقر النبي ﷺ وقالت: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾. هنا يسوق الله لهم "النموذج الفرعوني" كأصل تاريخي لهذا الفكر المادي العفن؛ ففرعون قد سخر من موسى لنفس السبب (الفقر والضعف المادي) فكانت عاقبته الإغراق، فهذا تعريض واضح بقريش ومن عاند رسل الله عليهم السلام واستهان بهم.

المقصد العام: كشف سيكولوجية الطغيان الجماهيري، وبيان أن تلازم "المادة" مع "الكبْر" يؤدي حتماً إلى العمى السلوكي المعاقب بالاستئصال، مع إقامة الحجة بعبودية الأنبياء (عيسى وموسى) ضد غلو المشركين وأهل الكتاب.

المشهد الفرعوني: سخرية المادة وعقدة النقص: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا...﴾

لفظة ﴿إِذَا﴾ الفجائية في قوله ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ يصور المفاجأة الصادمة؛ فبدل أن تخشع قلوبهم للآيات المعجزة، باهتوا الموقف بالضحك والسخرية كنوع من الهروب النفسي والدفاع اللاشعوري ضد الحق.

التناسب والبلاغة: قوله ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَاۖ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فيه استعارة لطيفة بوصف الآيات بـ "الأخوات" لتناسبها في الهداية والإعجاز، و"أكبر" هنا تدل على الترقي في الحجة والتتابع الإلهي لقطع المعذرة. ويشير ابن عاشور إلى أن هذا الترقي يبرز مدى تغلغل العناد في نفوسهم.

الانتهازية المادية: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾؛ نداء موسى بـ ﴿السَّاحِرُ﴾ هنا يعلق عليه البقاعي بأنه يعكس التناقض؛ فهم في وقت الضيق يعترفون بمكانته ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ ويعدون بالهداية ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾، لكنهم يغلفون نداءهم بلقب التعظيم عندهم آنذاك (فالساحر عندهم عالم كبير)، أو هو بقايا كبر لم يستطيعوا التخلص منه، ولذلك جاء التعقيب السريع بالفاء العاطفة للاستعجال: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ عودة إلى (إذا) الفجائية للمفاجأة بالنكث.

خطاب الطاغية وسيكولوجية "الاستخفاف": ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي...﴾

البلاغة والموازين الزائفة: يضع فرعون معيارين للأفضلية: الجغرافيا والثروة المائية: ﴿مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾.

الحلية والمظهر الخارجي: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾. في المقابل، يصف موسى بـ ﴿مَهِينٌ﴾ (فقير لا جاه له) و*﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾* (بسبب عقدة لسانه)، والتي قد عافاه الله منها أصلاً، لكنه يذكره فقد نشآ معاً في بيت فرعون الأب. هذا هو ذات المنطق البشري الجاهلي الذي يربط الحق بالثراء المادي.

قانون علم النفس الاجتماعي: يقف سيد قطب طويلًا عند قوله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾؛ فالطاغية لا يملك قوة ذاتية خارقة، بل يدرس جينات الضعف والمهانة في قومه، فيخاطب فيهم غرائز الخوف والطمع والمظاهر، ويجردهم من الوعي (يستخف عقولهم)، فلا يرى القوم الرازق الحقيقي بل يرون أنهار فرعون!

ويضيف محمد قطب أنّ ﴿إِنَّهمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ هي العلة؛ فالفسق الخُلقي والخروج عن الفطرة هو الذي يمهد الطريق لتقبل الدجل السياسي والمادي للطغاة.

غضب الله الماحق: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾؛ "آسفونا" في اللسان العربي بمعنى (أغضبونا أشد الغضب). يقول ابن تيمية: "غضب الله وصف حقيقي يليق بجلاله، والأسف هنا غاية السخط المحرك للانتقام". فكانت العقوبة حاسمة ومصاغة بأفعال متلاحقة ومتجانسة صوتياً: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ (السلف: القدوة في الشر المتقدمة، والمَثَل: العبرة السائرة).

في سورة الزخرف، جاء تعبير (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ) في وصف نهاية فرعون وملئه، بينما لم يُذكر هذا اللفظ في قصة قوم نوح رغم طول عذاباته، وهو ما يكشف عن دلالات لسانية، وسياقية، ومقاصدية عظيمة جلّاها أساطين التفسير.

الرؤية اللسانية والنحوية: سر التعبير بـ "آسفونا"التعدية بالهمزة: الفعل (أسِفَ) في أصله فعل لازم بمعنى حَزِنَ أو غَضِبَ، ولكن في الآية عُدِّيَ إلى المفعول به (النون) بالهمزة لتصبح (آسفونا)، وهو ما يُعرف في البلاغة بـ (التعدية لإفادة

التسبب). أي: حملونا على ما يماثل الأسف من الغضب، أو كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هو غضب يليق بجلالة (ليس كمثله شيء).

القراءة السياقية والمقاصدية: لماذا مع فرعون لا نوح؟ عند استجلاء آيات الله، يظهر الفرق الشاسع في سياق العذاب بين الطاغيتين: استكبار الطاغية الأوحد: في قصة فرعون، بلغ الطغيان غايته ليس فقط في تكذيب موسى، بل في استخفاف العقول واستعباد الأمة ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾، وهو تحدٍ سافر للهيمنة الإلهية، فلما انغلق طريق الهداية تماماً، جاءت الآية (فَلَمَّا آسَفُونَا).

تدرج العذاب والرحمة: في المقابل، نجد أن دعوة نوح استمرت ألف سنة إلاّ خمسين عاماً. ورغم الأذى الشديد، كان سياق الآيات القرآنية فيها تركيزٌ على استنفاذ كل وسائل الإنذار والتسلي، حتى إذا يأس نوح تماماً دعا الله بالفتح والنصر ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾.

انتقام الله جل جلاله منهم: يرى المفكر سيد قطب في تفسيره (في ظلال القرآن) أن الله سبحانه يتحدث عن ذاته في مقام تدمير فرعون وملئه بصيغة المتكلم (آسفونا)، وذلك إظهاراً لغضبه وجبروته، وهو موقف انتقام وتدمير شامل لم يبقِ ولم يَذَرْ.

يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم -في تقريراتهما للعقيدة- أن غضب الله وانتقامه هما من صفات الكمال الفعلية التي تليق بجلاله، وهي أثرٌ من آثار كمال عدله وحكمته في وضع العقوبة في موضعها الصحيح عند بلوغ الإفساد منتهاه.

في (نظم الدرر)، يلفت الإمام البقاعي الانتباه إلى أن الآيات في سورة الزخرف خُتمت بالإغراق لتكون رسالة زجرٍ لقريش وتثبيتٍ للنبي ﷺ؛ فـ "السلف" هم قوم فرعون، و"المثل" هم طغاة قريش (مثل أبي جهل) إنْ هم تمادوا في الاستهزاء والغي.

سقوط الأصنام وتمام الحجة: يؤكد محمد قطب في تحليله للقصص القرآني أن الإغراق كان هو الجزاء الحتمي بعد "إسرافهم في الكفر وتجاوزهم للحد"، فالعقاب يشبه العقاب (الغرق) لأن الغرق يمثل استئصالاً كاملاً لقومٍ بلغ شرهم واستخفافهم بالأمة مبلغاً يستوجب إزالة أثرهم من الوجود تماماً، لتطهير الأرض، وليكونوا عبرة.

قلت: ولعل هذا يدخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم: إن الله يحب العذر، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ليس أَحَدٌ أَحَبَّ إليه المَدحُ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، مِن أجلِ ذلك مَدَحَ نَفسَه، وليسَ أَحَدٌ أغيَرَ مِنَ اللهِ، مِن أجلِ ذلك حَرَّمَ الفَواحِشَ، وليسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إليه العُذرُ مِنَ اللهِ، مِن أجلِ ذلك أنزَلَ الكِتابَ وأرسَلَ الرُّسُلَ[1].

---

1 – أخرجه البخاري (4634)، ومسلم (2760).

كما يلاحظ ثمة فرق بين طغيان فرعون وملائه وبين طغيان قوم نوح، من ذلك تعدد الآيات التي أرسلت إليهم: (وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)، ومن ذلك أنهم وعدوا بالإيمان واتباع رسالة موسى وإرسال بني إسرائيل إن كشف عنهم العذاب، وإن كان وعدهم ولفظهم فيه من الاستكبار ما فيه: (وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ). والله أعلم.

المشهد العقدي: جدلية ابن مريم والخصومة الجاهلية: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ...﴾

السياق وأسباب النزول التدبرية: لما نزل قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، فرح مشركو مكة (ابن الزِّبَعْرَى وجماعته) وقالوا مجادلين: "خصمنا محمدٌ! إن كان كل ما يُعبد من دون الله في النار، فقد عُبد عيسى والمقربون، فنحن راضون أن نكون مع عيسى!" [1].

الفضح البلاغي للنوايا: يفضح القرآن هذه المغالطة المنطقية، يقول الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾. هم يعلمون أن عيسى عبدٌ صالح لم يأمر بعبادة نفسه، وأن الآية تقصد الأصنام التي رضيت بالعبادة، لكنهم استعملوا اسم عيسى للتشغيب والجدل العقيم.

الرد اللساني النحوي الحاسم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾: صيغة الحصر ﴿إِنْ ... إِلَّا﴾ تلخص حقيقة عيسى عليه السلام؛ قمّة شرفه أنه "عبد"، وكل ما جرى على يديه من معجزات ليس ذاتياً وإنما هو بـ "الإنعام" الإلهي ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾. هذا النص يهدم غلو النصارى الذين ألهوه، ويهدم جدل المشركين الذين قاسوا أصنامهم الحجرية بنبي كريم.

القدرة المطلقة المحطمة للمقاييس البشرية: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾. قال البغوي وغيره وهو قول شيخنا العثيمين: أي: لو نشاء لأهلكناكم وجعلنا بدلاً منكم ملائكة يكونون خلفاً منكم يعمرون الأرض ويعبدونني ويطيعونني، وقيل: يخلف بعضهم بعضا، كما عمرت الملائكة بطاعة الله قبل خلق آدم،

ولهذا لما قال للملائكة: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [البقرة:30]، ففيه تعريض بقريش ومن ناوأ وعاند الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم.

---

1 – انظر سياق القصة وتخريجها في سبب النزول أعلاه.

المقطع الختامي: استشراف المستقبل ومفاصل الصراط المستقيم: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾

القراءات اللغوية والدلالية: قرأ الجمهور ﴿لَعِلْمٌ﴾ (بكسر العين وسكون اللام): أي إن نزول عيسى في آخر الزمان علامة تُعلم بها الساعة وتُعرف. وهو ما يرجحه ابن تيمية تبعا لحديث النزول المتواتر.

ورويت قراءة عن ابن عباس رضي الله عنه، والتابعي قتادة، والضحاك ﴿لَعَلَمٌ﴾ (بفتح العين والفتحة على اللام): أي: أمارة ودلالة واضحة لوقوعها.

التحذير من القاطع الحقيقي: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾؛ عاد السياق للتحذير من العدو الخفي بعد أن عرض نموذج الصد الفرعوني والجاهلي. فـ "الصد" خصلة شيطانية مشتركة بين شياطين الإنس والجن.

كلمة السواء والعقيدة الصافية: ينتهي المقطع بلسان عيسى نفسه كحجة دامغة على من جادلوا فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾: تسوية ونفي لأي امتياز إلهي لعيسى، فهو مربوب لله كبقية الخلق.

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾: الفاء الفصيحة؛ بما أنه رب الجميع، فالنتيجة المنطقية الوحيدة هي إفراد العبادة له.

تذكر الأناجيل الحالية – رغم ما وقع عليها من تحريف- عدة نصوص ومواقف صريحة يؤكد فيها عيسى (عليه السلام) على وحدانية الله ويأمر بعبادته وحده، من أبرزها:

إنجيل مرقس (الإصحاح 12، الآيات 29-32): عندما سأله أحد الكتبة عن الوصية الأولى والأعظم، أجاب يسوع قائلاً: "اسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا رب واحد. وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك". وهذه العبارة تؤكد على وحدانية الله المطلقة.

إنجيل متى (الإصحاح 4، الآية 10) وإنجيل لوقا (الإصحاح 4، الآية 8): حين جُرّب عيسى (عليه السلام) من إبليس وطلب منه السجود له- أي أنّ إبليس حاول امتحان عيسى عليه السلام وإغوائه واختباره-، رد عليه بشكل قاطع حاسماً الأمر: "اذهب يا شيطان! لأنه مكتوب: للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد".

إنجيل يوحنا (الإصحاح 17، الآية 3): في سياق دعائه ومناجاته لله، صرح عيسى (عليه السلام) مبيناً حقيقة الإله الحق ومنزلته هو كرسول: "وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته".

قوله سبحانه: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾: إعادة لعين الجملة التي قيلت لمحمد ﷺ في الآية (43)، ليتطابق البدء والختام، وتلتقي دعوة موسى وعيسى ومحمد في نقطة مركزية واحدة: التوحيد الخالص، والتحرر من عبودية المادة والأشخاص.

الخلاصة: إنّ الأمة التي تُقاد بـ "الأنهار والذهب" هي أمّة فرعونية مستخَفَّةٌ فاسقة، ينتهي بها الأمر أو بساداتها غرقاً في متاعها ودمارها. وإن العقلية التي تقابل الحق بـ "الضحك والجدل الخصم" هي عقلية جاهلية مفلسة معرفياً. أما البديل الرباني فهو الاستمساك بالعبد المُنْعَمِ عليه بالوحي، والسير على الصراط المستقيم الذي لا تعثر فيه للمادة، ولا انحراف فيه لشهوة أو شبهة.

*(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (72) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ(73) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ **(74)** لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (77) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (78) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80) قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (87) وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (88) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(89)

هذا الختام المهيب لسورة الزخرف يمثل ذروة الحصاد وساعة الموازنة الختامية. فبعد الجولات النظرية والتاريخية التي فككت زيف "الزخرف المادي"، ينتقل المشهد هنا إلى "الزخرف الحقيقي" الدائم في الجنة، في مقابل "الإفلاس الأبدي" في جحيم المجرمين، لينتهي السياق بالمحاكمة العقدية الأخيرة والوداع النبوي الشامخ.

السياق والمقصد الختامي (الرؤية الكلية): الاتصال بالسابق: انتهى المشهد السابق بكلمة عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾. هنا يبدأ المقطع

ببيان رد الفعل البشري المتوقع: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾، لينقشع غبار الخلاف الدنيوي فجأة عن مشهد القيامة الفاصل.

المقصد الرئيس: إيقاظ الوعي البشري عبر إعلان نهاية التماهي مع المادة، وفضح العلاقات النفعية الزائلة، وتقديم "النعيم النفسي والحسي" كعوض حقيقي للمتقين، وإقرار ربوبية الله الرحمن للكون رغماً عن خوض الخائضين.

القراءة التدبرية والبلاغية والسياقية: تصدع العلاقات الإنسانية والمفاجأة المباغتة:

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ، هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وهم لا يشعرون، الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾

الاتساق: استعمال ﴿مِن بَيْنِهِمْ﴾ يدل على أن الاختلاف نبع من ذواتهم وأهوائهم ولم يكن لقصور في حجة الأنبياء. ثم يأتي التعبير بالاستفهام الحصري ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا﴾ (بمعنى ما ينتظرون إلا) ليصورهم في حالة تبلد ذهني، كأنهم واقفون بانتظار الكارثة التي ستدهمهم ﴿بَغْتَةً﴾ (فجأة دون مقدمات زمنية) و*﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾* (غفلة شعورية كاملة).

﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾. يقرر ابن القيم هنا قاعدة اجتماعية ممتدة: "كل خُلة وصداقة لغير الله تنقلب يوم القيامة عداوة؛ لأنها كانت سبباً في هلاك أصحابها". ويشير سيد قطب إلى أن "الخلة" هي أعلى درجات الحب والامتزاج، وبما أنها بنيت في الدنيا على "الزخرف والشهوات والباطل"، فإنها تتفسخ في ذلك اليوم العصيب ليتحول الحب إلى حقد متبادل، ولا ينجي من هذا التفسخ إلاّ رابط "التقوى" لأنه موصول بالباقي سبحانه.

الاحتفاء الرباني والزخرف الحقيقي للمتقين: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ...﴾

نقاء التلقي الصوتي والنحوي: النداء بـ ﴿يَا عِبَادِ﴾ بإضافة ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف والتحبيب، تمنح النفس شعوراً فورياً بالأمان والاحتواء الإلهي. ونفي الخلاف في الجملة الاسمية ﴿لَا خَوْفٌ... وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ينفي الخوف من المستقبل والحزن على الماضي.

البلاغة التصويرية واللسانية للنعيم: ﴿تُحْبَرُونَ﴾: الحَبْرة هي المبالغة في السرور والفرح الذي يظهر أثره على الوجه وسائر الجسد، فهو نعيم جوارح ونفس معاً.

﴿يطاف عليهم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾: هنا يبرز ابن عاشور لطيفة تقديم "الصحاف" (أواني الطعام العريضة) على "الأكواب" (أواني الشراب)، ومقابلة هذا "الذهب الحقيقي" بالذهب الزائف الذي طلبوه لفرعون ومحمد في الدنيا (﴿أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾). الذهب هناك كان فتنة، وهنا تكريم وتلذذ.

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾: هذه الآية جمعت مجامع النعيم البشري في أربع كلمات؛ فاللذة قسمان: لذة باطنة بالشهوة النفسية، ولذة ظاهرة ببهجة العين والنظر.

﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: يستنبط ابن تيمية هنا التوازن بين فضل الله وعدله؛ فالجنة أورثوها بفضل الله ورحمته، لكن العمل الصالح كان هو "السبب" والشرط لترتيب هذا الإرث، فلا تواكل ولا ركون.

دراما العذاب والعدالة الإلهية المطلقة: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ...﴾

المقابلة والتقابل البلاغي: بعد مشهد التكريم والسرور البهيج، يفتح القرآن نافذة مروعة على مشهد السقوط:

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾: الفتور هو الانقطاع أو التخفيف؛ أي إن العذاب على وتيرة واحدة مستمرة متصاعدة.

﴿مُبْلِسُونَ﴾: الإبلاس في اللسان العربي هو السكوت الناتج عن انقطاع الحجة واليأس المطلق من الفرج (ومنها اشتُق اسم إبليس).

الحوار الوجداني اليائس (قمة المأساة): ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾. يتأمل البقاعي في تعبير ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا﴾؛ لقد تمنى هؤلاء الموت (الفناء الشامل) واعتبروه أسمى أمانيهم للخلاص من العذاب، ولكن يأتي الرد الصارم المخيب لآمالهم من خازن النار بعد دهر: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾. الإقامة أبدية.

التعليل السلوكي النفسي عند محمد قطب: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ، وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ، لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾.

يبيّن الأستاذ محمد قطب علة العذاب هنا بأنها ليست الجهل بالحق، بل "كراهية الحق"؛ فالنفس الجاهلية تستثقل التكاليف وتكره الضوابط الأخلاقية وتفضل الانفلات العاطفي والمادي، فالأزمة أزمة "إرادة وقبول" وليست أزمة "معرفة وإدراك".

كشف المؤامرات والمحاكمة العقدية الكبرى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ * أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم...﴾

التشاكل اللغوي البديع: استعمال الاستعارة من عالم الصناعة (الإبرام وهو إحكام إقفال الحبل وتوثيقه): ﴿أَبْرَمُوا ... مُبْرِمُونَ﴾. إذا كانوا قد أحكموا مؤامراتهم وتدابيرهم ضد الدعوة والوحي، فإن تدبير الله وعقابه أحكم وأمتن وأقوى وعاقبته نافذة لا محالة.

المحاكمة المنطقية لفرية الولد: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾. هذا النص يمثل قمة النزاهة في الجدال والمحاجة؛ والشرط هنا ﴿إِن كَانَ﴾ شرط امتناعي (فرض جَدَلي)، والمعنى: لو ثبت بالبرهان والحق أن لله ولداً لكنت أول من يعظمه ويعبده تَبَعاً لتعظيم والده، ولكن هذا مستحيل عقلاً ونقلاً، بدليل التعقيب المباشر بالتنزيه البلاغي المطلق: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

الالتفات والإهمال التربوي: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾؛ التعبير بـ ﴿فَذَرْهُمْ﴾ (اتركهم) يحمل طابع التهديد المبطن العنيف، فوصف أفكارهم الكبرى ومقاييسهم المادية بـ "الخوض واللعب" تهوين تصغيري مشهدى لها، فالأمر لا يتعدى عبث أطفال في ساحة زائلة.

الهيمنة الإلهية والوداع النبوي الشامخ: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ... فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

علم العقيدة التيمية: قوله ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾. يقف ابن تيمية هنا ليوضح بطلان استدلال الحلولية بهذه الآية، ويبين بلغة العرب أن كلمة "إله" جاءت هنا بمعنى (المألوه المعبود)، أي: هو المعبود في السماء من ملائكته، والمعبود في الأرض من مؤمني خلقه، مع استوائه على عرشه بائن من خلقه سبحانه. وتكرار لفظ ﴿إِلَٰهٌ﴾ لتأكيد عموم وشمول استحقاق العبادة في العالَمين (العلوي والسفلي).

اعتراف الفطرة المأزومة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾. التناقض المعرفي الجاهلي يصل لقمته هنا؛ يعترفون بالخالق بالربوبية، ثم ينحرفون ويتصرفون بالشرك والعبودية لغيره (يُؤْفَكُونَ: يُصرفون عن الحق الواضح).

شجى الشكوى والوداع الأخير: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾. ﴿وَقِيلِهِ﴾: بواو القسم أو معطوفة على "سرهم ونجواهم" أو "علم الساعة"، أي وعلمِ اللهِ قولَ النبي ﷺ وضجيجه بالشكوى لربه بعد أن استنفد كل طاقته لإنقاذهم دون جدوى: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

القرار الاستراتيجي الختامي: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. ينتصر النبي ﷺ أخلاقياً ونفسياً؛ ينفصل عن غوغائيتهم وجدلها بـ "الصفح الجميل" وكلمة "السلام" التي تعني المتاركة والمقاطعة الأخلاقية الراقية (سلام توديع لا سلام تحية). وجاء الختام بوعيد مرعب ومقتضب بحذف المفعول به: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، لم

يقل ماذا سيعلمون، ليدع الخيال البشري يتوقع كل أصناف العذاب والندم والدمار المترتب على الإعراض عن الوحي.

وهذا يذكرنا بتوديع إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء وجد نبنا محمد صلى الله عليه وسلم، لأبيه: (قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا) [مريم:47].

هكذا تنتهي سورة الزخرف برسم المسار النهائي للبشرية: الزخرف المادي زائل: والذهب والقصور والأنهار تنتهي إما غرقاً كفرعون وإما مبلساً كالمجرمين في جهنم.

الزخرف الحقيقي باقٍ: وهو في تلك الجنة التي يطاف على أهلها بصحاف من ذهب، حيث لا خوف ولا حزن ولا عداوات، بل حب خالص بين المتقين.

مهمة الداعية المستمسك بالوحي: هي المضي في الصراط المستقيم، والصدوع بالحق، والترفع عن سفسطة المبطلين وجدال الخائضين، متسلحاً بالصفح الجميل والسلام الشامخ، منتظراً حكم "الحكيم العليم" الذي له ملك السموات والأرض.

*

## سورة الدخان

### تسمية السورة

(سورة الدُّخان) وهو الاسم الأشهر في المصاحف وكتب التفسير، ولها اسم آخر وارد في كتب السنة وبعض التفاسير وهو (سورة حم الدخان).

و هي سورة مكية مثل باقي "الحواميم" يوجد خلاف في عدد آياتها باختلاف مدارس "العد القرآني، عد آياتها 59 آية في العدّ الكوفي، 57 آيةعند أهل البصرة، 56 آية :عند أهل مكة، والمدينة، والشام، وذلك حسب طرائق هذه المدارس في عد آي القرآن، فما تعده مدرسة آية واحدة قد تعده مدرسة أخرى آيتين، كما وجد الخلاف في عد (حم) آية لوحدها، أو آية مع ما بعدها.

### سبب النزول

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنَّ قُرَيشًا لَمَّا أبطَؤوا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإسلامِ، قال: اللهُمَّ اكفِنيهم بسَبعٍ كَسَبعِ يوسُفَ، فأصابَتهُم سَنةٌ حَصَّت كُلَّ شيءٍ حتَّى أكَلوا العِظامَ، حتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ يَنظُرُ إلى السَّماءِ فيَرى بينَه وبينَها مِثلَ الدُّخانِ، قال اللهُ: (فارتَقِبْ يَومَ تَأتي السَّماءُ بدُخانٍ مُبينٍ)، قال اللهُ: (إنَّا كاشِفُو العَذابِ

قَليلًا إنَّكُم عائِدونَ)، أفَيُكشَفُ عنهمُ العَذابُ يَومَ القيامةِ؟ وقد مَضى الدُّخانُ، ومَضَتِ البَطشةُ[1].

وعن مسروق: عن عبد الله – أي ابن مسعود رضي الله عنه – قال: خَمسٌ قد مَضَينَ: اللِّزامُ، والرُّومُ، والبَطشةُ، والقَمَرُ، والدُّخانُ[2].

قال في الدرر السنية: وهذا رأيُ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه ووافقه في ذلك جماعةٌ من المفَسِّرين، وقد خالفه في ذلك الرأيِ غيرُ واحدٍ مِنَ الصَّحابةِ والتابعين؛ كابنِ عَبَّاسٍ وغيره، فذكروا أنَّ الدُّخانَ لم يَقَعْ بَعْدُ، وأنَّه علامةٌ كُبرى من علاماتِ يومِ القيامةِ، وفي ظاهرِ القرآنِ ما يدُلُّ على وُجودِ دُخانٍ مِنَ السَّماءِ يغشى النَّاسَ؛ فقَولُه: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ} ]الدخان: 10 [، أي: ظاهِرٌ واضِحٌ جَلِيٌّ، ليس خيالًا من شِدَّةِ الجُوعِ، وهذا أمرٌ محَقَّقٌ عامٌّ، وليس كما ذكر ابنُ مَسعودٍ -رَضِيَ اللهُ عنه- أنَّه خيالٌ عن أعيُنِ قُرَيشٍ من شِدَّةِ الجُوعِ. وفي صَحيح مُسلمٍ: عن حُذَيفةَ بنِ أُسَيدٍ الغِفاريِّ قال: «اطَّلَع النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم علينا ونحن نتذاكَرُ، فقال: ما تَذاكَرون؟ قالوا: نذكُرُ السَّاعةَ، قال: إنها لن تقومَ حتى ترون قبلها عَشْرَ آياتٍ، فذكر الدُّخَانَ»[3]. الحديث، فهذا الحديثُ وغَيرُه يؤَيِّدُ ما ذهب إليه الآخرون من كونِ الدُّخانِ علامةً مِن عَلاماتِ يومِ القيامةِ، ولم تظهَرْ بَعْدُ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا قال: سَمِعَ اللهُ لمَن حَمِدَه، في الرَّكعةِ الآخِرةِ مِن صَلاةِ العِشاءِ قَنَتَ: اللهُمَّ أنج عَيَّاشَ بنَ أبي رَبيعةَ، اللهُمَّ أنج الوليدَ بنَ الوليدِ، اللهُمَّ أنج سَلَمةَ بنَ هِشامٍ، اللهُمَّ أنج المُستَضعَفينَ مِنَ المُؤمِنينَ، اللهُمَّ اشدُدْ وطأتَكَ على مُضَرَ، اللهُمَّ اجعَلْها عليهم سِنينَ كَسِني يوسُفَ [4].

قال في الدرر السنية: والمُرادُ بالمُستَضعَفينَ مِن المُؤمِنينَ: ضُعَفاءُ المُؤمِنينَ بِمَكَّةَ وغَيرِها الَّذينَ حَبَسَهم الكُفَّارُ عن الهِجرةِ وآذَوْهم وعَذَّبوهم، «اللَّهمَّ اشْدُد وَطْأَتَك» أي: بَأْسَك أو عُقوبَتَك عَلى كُفَّارِ قُرَيْش أولاد «مُضَرَ» القَبيلةِ المَشْهورة الَّتي مِنها جَميعُ بُطونِ قُرَيْش وغَيرهم، «اللَّهمَّ اجْعَلْها» أي: عُقوبتَك «عليهم سِنينَ» مُجدِبةً

---

1 – أخرجه البخاري (4693)، ومسلم (2798)، باختلاف يسير.

2 – أخرجه البخاري (4825)، والبغوي في ((التفسير)) (7/ 229) بلفظه، ومسلم (2798) باختلاف يسير.

3 - أخرجه مسلم(2901) .

4 – أخرجه البخاري (6393)، ومسلم (675)، وأحمد (9149)، وابن خزيمة (615) بنحوه.

«كَسِنِي يُوسُفَ»، فَيَكونُ المَعنى هُنا هو الدُّعاءَ عليهم بالقَحْطِ العَظيمِ، وامتدادِ زَمانِ المِحنةِ والبلاءِ، وبلوغِ غايةِ الجَهدِ والضَّرَّاءِ.

وكلُّ هؤلاء الذين دعا لهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نَجَوا مِن أسْرِ الكُفَّارِ ببركةِ دُعائِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

بسم الله الرحمن الرحيم

*(حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (7) لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (8) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (9) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (10) يَغْشَى النَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (11) رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12) أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (13) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (14) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (15) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ(16) )

هذه الافتتاحية والديباج المهيبة من سورة الدخان هي من جوامع السور المكيّة التي تهزّ الوجدان، وترسم معالم الحقيقة الإلهية في مواجهة العبث الإنساني.

الفضاء السياقي والمقاصدي: يؤصل سيد قطب في الظلال للأجواء النفسية لهذه السورة، حيث يرى أنها ترسم مشهدًا كونيًا عنيفًا وهائلًا لخلخلة القلوب الجاحدة.

المقصد الرئيس: إثبات مصدرية القرآن (الوحي)، والتحذير من عاقبة التكذيب به، وبيان أن هذا الكون يدار بحكمة بالغة لا بالعبث واللعب.

السياق: تنزلت الآيات في بيئة مشركة ارتابت في صدق النبي ﷺ، فجاءت الآيات لتنقلهم من فضاء "الشك واللعب" إلى فضاء "اليقين والترقب".

اللطائف اللسانية والنحوية: تتجلى عبقرية اللسان العربي في بناء الجملة القرآنية هنا من خلال:

الحروف المقطعة (حم): ثنائية صوتية تبدأ بـ (الحاء) المهموسة الرخوة وتنتهي بـ (الميم) المجهورة الشديدة، وهي تنبيه صاعق بـ "مادة" هذا الكتاب المعجز.

*(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ، أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

قوله سبحانه: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ) قال قتادة وابن زيد: هي ليلة القدر، أنزل الله القرآن في ليلة القدر من أم الكتاب إلى السماء الدنيا ، ثم نزل له جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم منجما في عشرين سنة (إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ). تذهب بنا هذه الآية

بعيداً، تُعرّف الكون بليلةٍ اصطفاها الله من بين الليالي، كما اصطفى من بين البشر رسولاً، ومن بين الكلام كتاباً، فجعل اجتماع هذه الاصطفاءات كلها في لحظة واحدة: نزول القرآن (لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ )، في ليلة القدر.

(فِيهَا يُفْرَقُ): أي يُفصَل ويُبيَّن ويُكتَب ويُقَدَّر في هذه الليلة المباركة (ليلة القدر).

(كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ): كل شأن ذي حكمة بالغة من شؤون العباد (الآجال، الأرزاق، الحوادث) مما يقع في السنة المقبلة، وهو أمر "محكم" لا يقبل التغيير أو التبديل بعد خروجه من أم الكتاب إلى الملائكة.

(أَمْراً مِّنْ عِندِنَا): أي هذا التقدير وهذا الإرسال صادر من لدنا بعناية ومشيئة ربانية مباشرة وعظيمة.

(إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ): أي من أولياتنا وسنتنا إرسال الرسل بالكتب لهداية الخلق.

(رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ}: هذا الإرسال والتنزيل والتدبير الحكيم إنما هو محض رحمة وفيض إحسان من الله بعباده لئلا يضلوا.

(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ): تنبيه على أن هذا التدبير مبني على سماعه سبحانه لضراعة عباده وحاجتهم، وعلمه بما يصلح شأنهم. (ملاحظة: الآية ختمت بـ (السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)، وسياق الآيات التي تليها يذكر العزيز الرحيم)، أي سمع تضرع المتضرعين، وعلم حاجة العباد إلى رسول فرحمهم سبحانه بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم والرسل صلوات الله عليهم.

ثانياً: ما ورد في هذه الآيات من السنة المطهرة والآثار: ارتبطت هذه الآيات في السنة النبوية وآثار السلف بمسألتين رئيسيتين:

الأولى: ورد خلاف يسير في تحديد الليلة المباركة أهي ليلة القدر أم ليلة النصف من شعبان؟

الصحيح المرفوع: دلت السنة الصحيحة المتواترة على أن الليلة المباركة التي نزل فيها القرآن ويُفرق فيها كل أمر حكيم هي ليلة القدر في شهر رمضان؛ لقوله تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) ولقوله: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ).

أمّا الآثار الوارد، فقد ورد عن ابن عباس، وقتادة، وسعيد بن جبير، ومجاهد: "أن الله يقضي في ليلة القدر أمر السنة إلى السنة: من حياة وموت، ورزق، ومطر، حتى الحجاج؛ يقال: يحج فلان، ويحج فلان".

أما حديث ليلة النصف من شعبان: وردت آثار عن عكرمة وبعض السلف أن الليلة هي ليلة النصف من شعبان، وروي في ذلك حديث مرفوع (أن الآجال تقطع من

شعبان إلى شعبان...)، ولكن أساطين المحققين كابن تيمية وابن كثير وابن القيم وغيرهم ضعفوا هذا الحديث وأكدوا أنه حديث منكر يصادم صريح القرآن، وأن التقدير السنوي إنما يكون في ليلة القدر قطعاً ثابتاً برهنت عليه الأحاديث الصحيحة في البخاري ومسلم في الحث على التماس ليلة القدر.

والثانية: القراءة التكاملية: الفضاء السياقي والمقاصدي: التناسب الجليل: يذكر البقاعي في (نظم الدرر) أن السورة لما بدأت بالقسم بالقرآن الكاشف للحقائق في قوله تعالى: (وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ)، اقتضى السياق بيان "زمن" هذا التنزيل وصفته. فالكتاب عظيم، وزمن نزوله مبارك، وما يحدث في ذلك الزمن من هندسة الأقدار أمر حكيم.

مقصد محورية الوحي والوجود: يرى سيد قطب أن الآيات تربط بين "التقدير الكوني للكون والعباد" وبين "تنزيل الوحي". إن إرسال الرسل وإنزال الكتاب أمر ضخم يعادل في وزنه الوجودي تقدير الأرزاق والآجال ومصائر الأمم؛ فالقرآن ليس هامشاً في الحياة، بل هو "الأمر الحكيم" الأكبر الذي تُدار عليه حركة التاريخ.

اللطائف اللسانية والنحوية: صيغة المجهول للتعظيم البلاغي: قوله: (يُفْرَقُ) فعل مضارع مبني لما لم يسم فاعله؛ والهدف البلاغي هنا هو توجيه الذهن إلى الفعل ذاته وعظمته، فالقائم بالفرق معلوم وهو الله جل جلاله، ولكن البناء لما لم يسم فاعله يضفي هيبة وسكوناً على مشهد الفصل والتقسيم للأقدار.

تأكيد الصفة بالمصدر: وصف الأمر بـ (حَكِيمٍ)، وهو اسم فاعل بمعنى "مُحْكَم" أو "ذو حكمة". وجاء نكرة ليدل على غاية الكمال والاتصاف بالحكمة التي لا يتطرق إليها خلل ولا عبث.

إعراب وتدفق المؤثرات الصادعة: (أَمْراً): مفعول مطلق مؤكِّد لمضمون الجملة السابقة (أي: أَمَرَ أمراً)، أو حال من "أمر حكيم". وفي هذا النصب قطع للرتابة اللفظية لإثارة الانتباه، وإسناد الأمر لله جل وتعالى (مِّنْ عِندِنَا).

(رَحْمَةً): مفعول لأجله (لأجل الرحمة)، والعامل فيه إما (مُرْسِلِينَ) أو (أَنزَلْنَاهُ). هذا التعليق النحوي يربط تنزيل الكتاب وإرسال الرسل بالرحمة الذاتية المباشرة من الرب تبارك وتعالى.

الأسرار البلاغية والبيانية: الإيجاز الإعجازي في "الفرق": كلمة (يُفْرَقُ) في اللسان العربي تعني الفصل بين شيئين ملتصقين. فكأن مقادير الخلائق كانت مجملة متداخلة في اللوح المحفوظ، وفي هذه الليلة تُفصل وتُفرز وتُسلّم للملائكة الموكلين بإنفاذها (جبريل وميكائيل وملك الموت). هذا التجسيد البياني يحول المعاني العقلية الغيبية إلى مشاهد حركية تكاد تقع تحت البصر.

التناسب والالتفات البياني: في الانتقال من نون العظمة في قوله تعالى: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ)، {إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ}، (مِّنْ عِندِنَا)، إلى اسم الظاهر المضاف كاف الخطاب للنبي ﷺ: (رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ). يحلل ابن عاشور هذا الالتفات بأنه إيناس للنبي ﷺ وتثبيت لقلبه؛ فالتنزيل والتقدير شرعٌ عام، والرحمة مضافة لربك أنت يا محمد نصرةً لك ورعايةً لدعوتك ضد من قالوا عنك "معلم مجنون".

الملمح التدبري والعقدي: مراتب القدر: يقف ابن تيمية وتلميذه ابن القيم عند قوله (فيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) ليؤصلا لمسألة "التقدير السنوي". فالقدر عند أهل السنة مراتب: تقدير أزلي (كتب في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بـ 50 ألف سنة)، وتقدير عمري (يكتب والعبد في بطن أمه)، وتقدير سنوي (وهو المذكور في هذه الآية حيث يكتب ما يكون في العام)، وتقدير يومي (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ). وهذا التقدير السنوي لا يغير العلم الأزلي، بل هو إظهار وتفصيل لما سبق به العلم للملائكة.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قامَ فينا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بخَمسِ كَلِماتٍ، فقال: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يَنامُ، ولا يَنبَغي له أن يَنامَ، يَخفِضُ القِسطَ ويَرفَعُه، يُرفَعُ إليه عَمَلُ اللَّيلِ قَبلَ عَمَلِ النَّهارِ، وعَمَلُ النَّهارِ قَبلَ عَمَلِ اللَّيلِ، حِجابُه النُّورُ، وفي رِوايةِ أبي بَكرٍ: النَّارُ، لو كَشَفَه لأحرَقَت سُبُحاتُ وجهِهِ ما انتَهى إليه بَصَرُه مِن خَلقِه[1].

الرحمة والربوبية والصفات: ختام الآية بـ (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) يؤكد -عند ابن القيم- كمال تلازم الأسماء والصفات؛ فالله لم يقدر هذه المقادير ولم ينزل هذا الكتاب عن جهل -تعالى علواً كبيراً- بل عن علم محيط بكل جزئية، وسماع دقيق لكل شكوى وأنين ودعاء؛ فالأقدار كلها مغسولة بالرحمة والحكمة والسمع والعلم.

اللمسة النفسية والواقعية: جثوم الطمأنينة في قلب المؤمن: حين يتدبر المسلم المعاصر قوله تعالى: (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِّنْ عِندِنَا)، تنزاح عن كاهله أثقال القلق النفسي والوجودي. إن طواغيت الأرض وحوادث الأيام وصخب السياسة والاقتصاد لا تسير خبط عشواء ولا يصنعها البشر بجهلهم، بل هناك "ليلة مباركة" في الملأ الأعلى فُصلت فيها الخطوط العريضة لكل حادثة بحكمة بالغة؛ مما يورث القلب ثباتاً وسكينة أمام عواصف الحياة، لعلمه أن الأمور مبرمة من عند حكيم عليم.

*(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ)، الإيجاز بالحذف وعظمة المشهد: حذف مفعول "ارتقب" لتهويل الأمر، وجعل السماء نفسها هي التي "تأتي" بالدخان فهي فاعلة مأمورة، لتجسيد الضيق والاختناق النفسي والمادي.

---

1 – أخرجه مسلم(179) ، وأخرجه ابن خزيمة في التوحيد (45/1) باختلاف يسير وقد أشار في المقدمة أنه صح وثبت بالإسناد الثابت الصحيح

التشنيع والتهكّم البلاغي: في حكاية قولهم (مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ)؛ جمعوا بين متناقضين (المُعَلَّم: من يتلقى العلم ويعقله، والمجنون: من فَقَدَ العقل)، وهذا غاية الاضطراب النفسي للمكذب الذي يبحث عن أي تهمة ولو تهاوت أمام المنطق.

الملمح التدبري والعقدي: يركز الشيخ ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهم الله على عمق الصفات والسنن الإلهية في هذه الآيات:

سُنّة الابتلاء وكشف العذاب: في قوله: (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ). يوضح ابن القيم كيف أن الإنسان إذا مسه الضر تضرع، فإذا كُشف عنه عاد لطبعه الطيني الجاحد. هذا يكشف عورة "النفس البشرية" حين تتجرد من الإيمان الحقيقي.

البطشة الكبرى: المقابلة بين الكشف "القليل" المؤقت للعذاب في الدنيا (سواء كان الجوع والقحط الذي أصاب قريشًا أو عذاب القبر البيني)، وبين (الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ) يوم القيامة، حيث ينتقم الحق سبحانه لدينه ورسله. ولفظ "البطش" في اللسان هو الأخذ الشديد بعنف وقهر، كما في قوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) [هود:102].

اللمسة التربوية والنفسية: ينظر محمد قطب من خلال منظار "واقعنا المعاصر" ومناهج التربية الإسلامية إلى هذه الآيات:

داء اللعب والسيولة: (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ)؛ الشك لا ينتج جِدية، بل ينتج استهتارًا وضياعًا. الإنسان الملحد أو الشاكّ يتحول الوجود عنده إلى "ملعبة"، والقرآن يريد انتشال البشرية من "سيولة اللعب" إلى "صلابة المسؤولية" أمام رب يحْيِي وَيُمِيتُ.

خلاصة: يقول البقاعي في (نظم الدرر) في تناسب الآيات والسور ما معناه: إن السورة بدأت بالكتاب وتنزلاته، وانتهت بالبطش وعقوباته؛ ليدل ذلك على أن من لم تحركه رحمة البيان والتنزيل الهادئ في الليلة المباركة، فليس له إلاّ أن تقهره سطوة البطش الشديد في اليوم المشهود.

*(۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(18) وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (19) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (20) وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (21) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (22) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (23) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (24) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (29) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (30) مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (31) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (32) وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ (33) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ

لَيَقُولُونَ (34) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (35) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (36) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَاهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ(37) )

تنتقل بنا هذه السلسلة النورانية من سورة الدخان انتقالاً سياقياً حاسماً؛ فبعد أن هدد الحق سبحانه كفار قريش ومن سار على نهجهم بـ "البطشة الكبرى" وذمّ مسلكهم القائم على "الشك واللعب"، ساق لهم النموذج التاريخي والشاهد الواقعي ليتدبروا عاقبة الطغيان البشري مستعرضاً قصة موسى عليه السلام مع فرعون، ثم عائداً ببراعة لسانية إلى المحاججة العقدية مع مشركي مكة.

الفضاء السياقي والمقاصدي: المقصد الأساس وشرف التناسب: يذكر البقاعي في (نظم الدرر) أنّ مجيء قصة فرعون هنا جاء كـ "مِثال مضروب" للبطشة الكبرى الموعود بها في الآية السابقة (إِنَّا مُنتَقِمُونَ). إن الله يقول لقريش وأمثالهم: إن كنتم تستبعدون البطش، فانظروا ماذا فعلنا بفرعون الذي كان أشد منكم قوة وأكثر جمعاً.

الظلال النفسية للقصة: يرى سيد قطب أن السياق هنا ينبض بالحركة السريعة والتقليب الخاطف للمشاهد. تبدأ بفتنة العبيد وإرسال الرسول، وتنتهي بمشهد القصور الخاوية، ولم يبك عليهم أحد، لم يستحقوا بكاء أحد، أي غير مأسوف عليهم، كما قال في موضع آخر: (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ) [الذاريات:40]، لتتحرك القلوب من جمودها أمام هذا الموت المفاجئ غير المأسوف عليه للطغيان،"النبذ" هو إلقاء الشيء التافه الحقير، لأنهم أتوا بما يلامون عليه من الكفر وتكذيب الرسل.

وفي هذا استعارة تهكمية مروعة؛ ففرعون وجيشه العظيم صاروا في ميزان القدرة الإلهية مجرد أشياء صغيرة تافهة لا تستحق أنْ يبكي أحد لفقدها، وهلاكها!

اللطائف اللسانية والنحوية: اللام الموطئة للقسم و"قد" التحقيقية: (وَلَقَدْ فَتَنَّا)، تركيب يفيد شدة العناية بالخبر والتوكيد القاطع بأن الابتلاء والتمحيص سنة ربوية ماضية جرت على من قبلهم، والفتنة هنا بمعنى الاختبار بالنعمة والرسالة.

البناء الوجيز للأمر بالدعوة: في قوله: (أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ). "أنْ" هنا مفسرة لأنها جاءت بعد فعل فيه معنى القول دون حروفه (وجاءهم رسول). ونحويًا، (عِبَادَ اللَّهِ) مفعول به لـ "أدّوا" (أي: سلّموا إليّ بني إسرائيل وأطلقوهم من أسر العبودية)، أو هي منادى مضاف حُذفت منه ياء النداء (أي: أدّوا ما آمركم به يا عباد الله)، وفي كلا الوجهين جمال بياني آسر يذكّر الطاغية بأن هؤلاء المستضعفين هم عباد الملك الحق، الله، وليسوا عبيداً لفرعون.

الحال المؤكدة والنصب على المفعولية المطلقة: (وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا): "رَهْوًا" حال من البحر، أي ساكناً ساكناً مفرّقاً كما هو.

(كَمْ تَرَكُوا): "كم" اسم تكثير مبني في محل نصب مفعول به مقدم لـ "تركوا"، وصدارة "كم" في الجملة تعطي إيحاءً بالذهول من ضخامة المتروكات.

الأسرار البلاغية والبيانية: استعارة التكميم والتحقير الوجودي: قوله تعالى: (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ):

يصنفها ابن عاشور في (التحرير والتنوير) على أنها تمثيل تهكمي كُني به عن حقارتهم وهوانهم عند الله وعند خلقه. جرت عادة العرب في مرثياتهم أن يزعموا أن السماء أظلمت والأرض اهتزت لموت العظيم، فجاء القرآن لينفي هذا التوهم عن الطغاة نفياً مطلقاً؛ فهم ثقلٌ خبيث انزاح عن صدر الوجود، فلم تشعر بهم أرض ولا سماء.

الإيجاز بالحذف المذهل: في قوله: (كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ). كلمة "كذلك" وحدها تختزل فصلاً كاملاً من تقلب الأحوال، أي: مثل ذلك الإهلاك الفظيع جرى أمرنا، ومثل ذلك المتاع تُرِك.

وهنا يأتي سؤال: قال الله تعالى هنا في سورة الدخال: (كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ)، وفي سورة الشعراء قال تعالى: (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) [الشعراء:59]، وفي الشعراء قال سبحانه قبلها: (فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) [الشعراء:57-58]، بينما لم يذكر الكنوز هنا في سورة الدخان؟

وقد ذهب إلى عدم وجود تعارض حقيقي؛ فالآيات تتحدث عن إرث إلهي للخيرات بعد هلاك الطغاة. وإرث "بني إسرائيل" يشير إما إلى إرثهم لخيرات أرض الشام (فلسطين) أو إلى ما استعاروه من حلي فرعون، بينما "القوم الآخرون" في الدخان يشيرون إلى ورثة مُلك مصر الجُدد من غير نسل فرعون بعد غرقه. وقد أشار سيد قطب رحمه الله (في ظلال القرآن) إلى أنّ المؤرخين مجمعون على أنه لم يبق أحد من بني إسرائيل في مصر بعد موسى.

يرى العلامة ابن عاشور (في التحرير والتنوير) أن مرجع الضمير في (وأورثناها) في سورة الشعراء ليس بالضرورة أرض مصر. فبنو إسرائيل فارقوا مصر، والمراد أن الله سلب فرعون وقومه النعيم وأعطى بني إسرائيل خيرات موازية في أرض الشام.

فتوجيه "القوم الآخرين": في سورة الدخان، يشير (قوماً آخرين) من سوى فرعون وقومه ومَن ولى حُكم مصر من القبط وغيرهم ممن أتوا بعد هلاك فرعون. وقد لُقبوا بـ"الآخرين" لكونهم من غير نسله.

أمّا أثر ذكر الكنوز في سورة الشعراء: يُبيّن العلماء (مثل ابن جماعة) أنّ ذكر (الكنوز) في سورة الشعراء جاء ضمن سياق البسط والإطالة في تعداد ما كان يملكه

الطاغية، لتكون الحسرة أبلغ حين زال مُلكه. فناسب ذكر "الكنوز" مع بني إسرائيل لأنهم أُعطوا أمثالها أو ورثوا بعض ما استعاروه من حلي القبط.

تناسب المقامات: تفرّد سورة الدخان بالإيجاز والاختصار، فناسب سياقها المقتضب ذكر (الزروع) دون بسط القصة كلها. أمّا سورة الشعراء فكانت في مقام بسط قصة موسى والابتلاء، فناسبها بسط النعم.

سُنة الاستخلاف والميراث: يُركّز مفكرو الدعوة والقرآن على البُعد المقاصدي؛ فالغاية من الآيتين هي إبراز "سُنة الاستخلاف". فالله تعالى يُبدل الطغاة بقوم آخرين عندما يُفسدون في الأرض، ليؤكد أن المُلك لله يؤتيه مَن يشاء.

أمّا عاقبة الطغيان، فقد استعرض سيد قطب (في "في ظلال القرآن") هذه الآيات ليُبيّن خواء الطغاة أمام قدرة الله. فقد تركوا كل ما يملكون ولم يغنِ عنهم جنات ولا عيون ولا كنوز شيئاً، وجاء ميراثها لقوم آخرين ليكون عبرة للتاريخ البشري.

ثم يمتن الله على بني إسرائيل وعلى المؤمنين من بعدهم بقوله: (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ، مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ، وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) أي: أن الله اختار المؤمنين من بني إسرائل لخلافة الأرض قبل أن تنزع منهم الخلافة بإرسال الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

فكما تزع الله الملك من فرعون وقومه، قال: (كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ) فكذا هنا، كما اختار بني إسرائيل ليخلفوا الأرض بعد فرعون، اختار محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ليخلفوا الأرض بعد بني إسرائيل.

*(وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِين)، التنكير للتفخيم والتقليل الدلالي: (بَلَاءٌ مُّبِينٌ)؛ جاء التنكير ليحتمل الأمرين؛ فهو بلاء (نعمة واختبار بالتمكين) لبني إسرائيل، وهو بلاء (نقمة وعذاب) لفرعون وقومه، والوصف بـ "مبين" يرفع اللبس عن وضوح السنتين.

الملمح التدبري والعقدي: علو الإسراف وعلو الإيمان: يستحضر ابن تيمية تعليقاً على قوله تعالى: (إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ) أن العلو في الأرض نوعان: علو بغير حق (علو الطغيان والملك والتعاظم كحال فرعون)، وعلو بالحق (وهو علو الإيمان والاستعلاء بآيات الله كحال موسى حين قال: (وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ). فرعون علا على العباد مسرفاً، وموسى استعان بالله عائذاً برب السماوات والأرض.

حقيقة الاختيار والابتلاء بالنعمة: قوله تعالى: (وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ). يوضح ابن القيم في هذا الموضع كيف أن اختيار الله لبعض الأمم أو الأشخاص يكون قائماً على "علمه" سبحانه بما يصلح لهم وما هم عليه، لكن هذا الاختيار لا يعصمهم من خطأ إن هم حادوا، ولذلك أتبعها مباشرة بقوله: (مَا فِيهِ بَلَاءٌ

مُّبِينٌ) ليثبت أنّ التفضيل هو ذاته موضع تكليف واختبار دقيق، وليس صكاً مفتوحاً للنجاة بلا عمل.

*(إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ، إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ، فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)

اللمسة التربوية والنفسية ومحاججة المنكرين: عقدة الإنكار المادي: يلتفت محمد قطب بكتاباته التربوية الفلسفية إلى الانتقالة المنطقية في قوله: (إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ). الجاهلية هي الجاهلية في كل عصر (فرعونية كانت أو قرشية أو مادية حديثة)، تقوم على الرؤية الأفقية الضيقة للوجود: "نحن نعيش ونموت ولا بعث".

الاستخفاف والتعجيز الطفولي: حين قال الكفار: (فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)، هو مسلك الطفولة الفكرية والهروب من الحجة بالتعجيز، فالبعث ليس لعبة تدار تحت رغبات البشر التجريبية، بل هو وعد إلهي له ميقات معلوم.

سحق الكبرياء بالتاريخ (قوم تُبّع): قوله: (أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ)، هنا يُسقط القرآن كبرياء قريش الاقتصادي والسياسي ومن سار على نهجهم عبر ميزان القوى التاريخي. إنّ "تُبّع" (ملوك اليمن) كانوا أصحاب حضارة وقوة مادية وقلاع تفوق ما تملكه قريش بآلاف المرات، ومع ذلك لم تغنِ عنهم قوتهم شيئاً عندما أجرموا؛ فكيف لـ "تجار مكة" أن يظنوا أنهم في معزل عن الإهلاك الإلهي؟

أما حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : ما أَدْرِي تُبَّعٌ أَنَبِيًّا كان أم لا، وما أَدْرِي عُزَيْرٌ أَنَبِيًّا كان أم لا، وما أَدْرِي الحُدُودُ كَفَّاراتٌ لِأَهْلِها أم لا. فهو ضعيف[1].

خلاصة: إن حركة الآيات من طلب موسى اللطيف الحكيم: (وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ) (وهي ذروة الإنصاف النبوي)، إلى صراخه بالدعاء بعد العناد: (أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ)، وصولاً إلى مصير الطغاة الأليم والساخر في آنٍ معاً حيث النعيم المتروك والخلف الوارث، يعطي المؤمن يقيناً حتمياً بأن الباطل مهما انتفخ وعلا وانتفش، فإن نهايته كجلمود صخر حطّه السيل من عَلِ، طُويت صفحته ولم تبكِ عليه السماء ولا الأرض.

*(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (38) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(39) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (41) إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (42) إِنَّ

1 - أخرجه أبو داود (4674) مختصراً، والبزار (8541)، والحاكم (2174) باختلاف يسير، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع.

شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (43) طَعَامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (46) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (47) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (48) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49) إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (50) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (53) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (54) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (55) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (56) فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (57) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58) فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ(59) )

تصل بنا هذه الخاتمة المهيبة لسورة الدخان إلى الذروة المشهدية والمقاصدية؛ فبعد جولة كبرى بين وعيد الدنيا الحاضر (أثر الدخان) وتاريخ الطغاة الغابر (مصرع فرعون وقوم تبع)، يرتفع السياق إلى الفضاء الكوني العقدي، ثم ينحدر بقوة صاعقة إلى مشهد "يوم الفصل" وما يعقبه من مفارقة صارخة بين عذاب الأثيم ونعيم المتقين، لينتهي الأمر بكلمة الفصل الحاسمة: "فارتقب إنهم مرتقبون".

*(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ): الفضاء السياقي والمقاصدي: لحمة السياق وشرف التناسب: يذكر البقاعي في (نظم الدرر) أنّ هذه الآيات هي "الجواب الأكبر" على منكري البعث الذين قالوا سابقاً (إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ). فجاء الرد باقتلاع شبهتهم من أساسها: إن إنكار البعث يلزم منه أن يكون خلق الكون عبثاً باطلاً، والملك الحق منزه عن العبث واللعب.

المقصد الوجودي والتربوي: يحلل سيد ومحمد قطب هذا المقطع باعتباره إعلاناً لـ "جدية الوجود". الكون مبني على الحق الصارم والأهداف والغايات الكبرى؛ ولأن الكون جاد، فإن الإنسانية لا تُترك هملاً، ومن هنا كان حتمية "يوم الفصل" ليعود الحق إلى نصابه، وينقسم الوجود إلى معسكرين لا ثالث لهما: العذاب المطلق، والأمان المطلق.

الباء في (بالحق) باء المصاحبة أو الملابسة، أي: خلقناهما ملابسين للحق، وليست بديلة للّام (التعليلية). وتدل دلالة قطعية على تنزيه الله عن العبث، وأن خلقه للكون يحمل غاية ثابتة، ويهدف إلى إقامة العدل، والجزاء، والدلالة على وحدانيته، مما ينفي أي احتمال للباطل أو اللعب.

وقيل للسببية، حيث وجه بعض النحاة الباء للسببية (بمعنى اللام)، أي: خلقنا ذلك لإيجاد الحق، ولأجل غاية الحق، وهو الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [1].

---

1 – وانظر: تهذيب تفسير البغوي (معالم السنن) (ص1091)

اللطائف اللسانية والنحوية: الحصر والقصر: قوله تعالى: (مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ). استخدام النفي (ما) والاستثناء (إلاّ) يفيد القصر الحقيقي؛ أي أن الحق هو العلة الغائية والوحيدة وراء هذا البناء الكوني الهائل.

*(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ، يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ، إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ) يوم يفصل الرحمن بين العباد، (مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ) يوافي يوم القيامة الأولون والآخرون).

نفي الغنى والتنكير: قوله: (يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا). "مولى" الأولى والثانية جاءتا نكرتين في سياق النفي، مما يفيد العموم والشمول القطعي (أيّ مولى، سواء كان قريباً أو ناصراً أو سيداً، لا يغني عن أي مولى آخر). وكلمة (شَيْئًا) مفعول مطلق أو به، وتنساح دلالتها لتشمل أقل القليل من الإغناء، أي لا يمنعون من عذاب الله.

*(إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ ۚ ) يريد المؤمنين، فإنه يشفع بعضهم لبعض كما ثبت في السنة المطهرة، (إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ) في انتقامه من أعدائه (الرَّحِيمُ) بالمؤمنين.

*(إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ، طَعَامُ الْأَثِيمِ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ، خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ):

البناء الهيكلي للأمر (العتل): في قوله: (خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ}. العتل في اللسان هو الدفع العنيف بجذب وجرّ من غير رفق. وجاء الفعلان بصيغة الأمر الموجه للملائكة الغلاظ الشداد، مع عطف الفاء المفيدة للسرعة والتعقيب الفوري لتصوير المشهد كأنه واقع الآن.

*(ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ، ُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ، ِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ)

قَوْلُهُ تَعَالَى: (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)، قَالَ قَتَادَةُ: نَزَلَتْ فِي عَدُوِّ اللَّهِ أَبِي جَهْلٍ، وَذَلِكَ أنه قال: أيوعدني مُحَمَّدٌ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَنَا أَعَزُّ مَنْ بَيْنَ جَبَلَيْهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ.

ثم ساق الخبر بسنده إلى عِكْرِمَةَ البربري مولى ابن عباس قَالَ: لَقِيَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَبَا جَهْلٍ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَقَدْ عَلِمْتَ أَنِّي أَمْنَعُ أَهْلِ الْبَطْحَاءِ، وَأَنَا

الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ، قَالَ: فَقَتَلَهُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَذَلَّهُ وَعَيَّرَهُ بِكَلِمَتِهِ، وَنَزَلَ فِيهِ: (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) [1].

*(إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (50) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (53) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (54) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (55) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (56) فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (57) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58) فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ(59) )

الاستثناء المنقطع: قوله: (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ). يرى النحاة كـ ابن عاشور أن هذا استثناء منقطع؛ لأن الموتة الأولى قد ذيقَت في الدنيا وليست في الجنة، وفائدته البلاغية (تأكيد النفي بما يشبه الإيجاب)؛ فكأنهم لما فتشوا عن موتٍ في الجنة، لم يجدوا إلاّ الموتة التاريخية الغابرة التي أفضت بهم إلى هذا النعيم المقيم، فهو تأكيد للخلود والأبدية المطلقة، نسأل الله من فضله ورحمته فإنه لا يملكها إلا هو.

الأسرار البلاغية والبيانية: التهكم البلاغي الصاعق: في قوله تعالى لخصيم القرآن الأثيم في جهنم: (ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ).

هذا من أعظم مشاهد التبكيت والتهكم البياني في القرآن. اللفظ يقطر تشريفاً، والواقع يغصّ بالهوان والعذاب (العتل، وصب الحميم فوق الرأس). وهو رد مباشر على كبرياء الطاغية في الدنيا، أبو جهل كما سبق، فجاء الجزاء من جنس القول والمقعد الساخر.

التشبيه الحركي الصوتي (المرئي والمسموع) في قوله تعالى: (كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ). هنا تشبيه مزدوج حسي؛ فالمهل (المعادن المذابة أو رديء الزيت) له كثافة وثقل، والغليان له حركة وفقاقيع وصوت مرعب. تضافر الكلمات (المهل، يغلي، غلي، الحميم) يثير في النفس قشعريرة مادية ونفسية واضحة.

المقابلة التناظرية العجيبة: وازن القرآن بدقة متناهية بين مشهدي العذاب والنعيم:

هناك: عذاب في (سَوَاءُ الْجَحِيمِ) أي: وسطها ليزداد حراً. / هنا: نعيم في (مَقَامٍ أَمِينٍ) أي: في مأمن من كل خوف.

هناك: طعامهم من شجرة تملك أبشع الصفات (الزَّقُّومِ). / هنا: يأكلون بطلب ورغد (يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ).

---

1 – وانظر: أسباب النزول للواحدي (ص377) ، **دار الإصلاح – الدمام** ، الطبعة الثانية **١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، قال في حاشية أسباب النزول: أسنده ابن جرير (80/25) عنه, بإسناد صحيح.**

هناك: سائلهم وسقياهم الغليان والصهر (الْحَمِيمِ). / هنا: سائلهم وسقياهم عذب متدفق في الجنات و (عُيُونٍ).

الملمح التدبري والعقدي: الأمان الوجودي للمتقي: يطيل ابن القيم الوقوف عند قوله تعالى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ). فيرى أنّ وصف المكان بـ "الأمين" يجمع كل معاني السلامة؛ فهو أمين من زوال النعمة، وأمين من طروق الآفات، وأمين من كيد الأعداء، وأمين من انقطاع الرزق، وأمين من خوف الموت. فالأمن هنا نفسي وروحي ومادي ممتد.

حقيقة الفضل والجزاء: في قوله تعالى: (فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ). ينص ابن تيمية على أن نجاة العبد ودخوله الجنة إنما هي بمحض فضل الله ورحمته، وليست "ثمناً معاوضاً" للعمل بمجرده، فالعمل سبب والفضل هو الغاية والمنّة والوهب، ولذا ختم بالانتساب للربوبية المشعّة بالرحمة واللطف (مِّن رَّبِّكَ).

اللمسة النفسية والتربوية وخاتمة السورة: تيسير القرآن بلسان الرسالة: قوله: (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ). يذكر محمد قطب أن هذا التيسير هو لمسة حانية للنبي ﷺ ولأمته؛ فالقرآن لم ينزل ليكون لغزاً فلسفياً معقداً، بل جاء بلسان عربي مبين، يطرق القلوب بطرائق الفطرة، فمن لم يتذكر بعد هذا البيان الشافي والتقليب الدقيق، فقد ختم على قلبه.

صراع الارتقاب (خاتمة الموقف): تنتهي السورة بـالنغمة المتوعدة الهادئة الشديدة: (فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ).

هذا هو "السيناريو" الأخير للصراع؛ المؤمن يرتقب النصر ووعد الله المحتوم بيقين وهدوء، والكافر يرتقب بظن وشك وريبة مصيرهم المجهول. إنها كلمة الفصل التي تنهي الجدال العقلي لتدع الواقع يتحدث؛ فالأيام بيننا، والموعد ليلة البطشة الكبرى أو يوم الفصل الموعود.

خلاصة: بدأت السورة بالحروف المقطعة حرف مهموم وحرف من حروف اللين (حم) والكتاب المبيّن المُنزل في ليلة مباركة لفصل الأمور وحكمها، وختمت السورة ببيان تيسير هذا الكتاب باللسان النبوي لغرض التذكر. فمن لم ينفعه تيسير اللسان في دار البيان، فليس له في دار الميزان إلاّ لغة العتل والصب والتهكم البئيس؛ لتلتحم الخاتمة بالمقدمة في نسيج قرآني معجز لا تنقضي عجائبه.

*

## سورة الجاثية

### تسمية السورة

(سورة الجاثية): وهو الاسم الأشهر في المصاحف وكتب التفسير، سُميت بذلك لورود لفظ "الجاثية" فيها في قوله تعالى: (وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً) [الجاثية:28]؛ إشارة إلى حال الأمم يوم القيامة حين تجثو على ركبها خوفاً ورهبةً في انتظار الحساب

كما أطلق عليها اسم (سورة الشريعة)، لورود لفظ "الشريعة" فيها، وهو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي ذُكرت فيه هذه الكلمة، وذلك في قوله تعالى: (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا) [الجاثية:18].

وأيضاُ أطلق عليها اسم (سورة الدهر): لذكر كلمة "الدهر" فيها في سياق حكاية قول المشركين: (وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ) [الجاثية:24]، وهنا تحتاج ما يميزها عن سورة الإنسان، فهي أيضا من أسمائها سورة الدهر لذكر الدهر في الآية الأولى منها.

وثمة اسم رابع تميزت به الحواميم، وهو هنا (سورة حم الجاثية): لأنها ضمن مجموعة سور "الحواميم" التي تبدأ بالحروف المقطعة (حم).

وهي سورة مكية، ووجد خلاف يسير في عد آياتها، ففي العد المدني والكوفي عدد آياتها 37، والباقون عدوا آياتها 36، يعود هذا الاختلاف إلى مواضع الوقف (التقطيع) للآيات، خاصة في الحروف المقطعة في أول السورة (مثل: حم).

**سبب النزول**

ذكر العلماء سبب نزول بعض الآيات من قوله تعالى: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ) [الجاثية:24].

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه قال الله: إنَّ اللهَ يقولُ يُؤذِيني ابنُ آدَمَ يسُبُّ الدَّهرَ وأنا الدَّهرُ بيدي الأمرُ أُقلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ [1].

قال البغوي - رحمه الله-: إن العرب كان من شأنهم ذم الدهر، وسبه عند النوازل، لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب، فيقولون أصابهم قوارع الدهر، ، وأبادهم الدهر، كم أخبر الله عنهم: (وما يهلكنا إلا الدهر)، فإذا أضافوا إلى

1 – أخرجه البخاري (4826)، ومسلم (2246)، وأبو داود (5274) واللفظ لهم

الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها، فكان مرجع سبهم إلى الله عز وجل، إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يضيفونها إلى الدهر، فنهوا عن سب الدهر»[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

*( حم (1) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (6) وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (8) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (9) مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (10) هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ(11) )

هذه الافتتاحية المهيبة من سورة الجاثية تمثل محاكمة قرآنية صارمة للوعي الإنساني، وتضع الفطرة أمام مرآة الوجود؛ لتكشف الفجوة الهائلة بين انسياب الآيات الكونية والقرآنية، وبين جحود "الأفاك الأثيم".

المعمار المقاصدي والسياق النفسي: يلحظ سيد قطب (في الظلال القرآن) أن هذه الآيات تسير وفق إيقاع كوني ونفسي هائل. المقصد الأساسي هنا هو "مواجهة الكبر البشري بالحقائق المطلقة".

التدرج في مراتب الوعي: الآيات تقسم الخلق إلى ثلاث مراتب في التلقي:

المؤمنون: تكفيهم نظرة عامة في السماوات والأرض ليستدلوا على الصانع (لآيات للمؤمنين).

الموقنون: يحتاجون عمقاً غائراً في تفاصيل الخلق والأنفس والحياة (لقوم يوقنون).

العاقلون: الذين يربطون الأسباب بالمسببات، فيتدبرون الحركة الدائبة: اختلاف الليل والنهار، إنزال المطر، وتصريف الرياح (لقوم يعقلون).

أمّا اللمستكبر فتشخيصه النفسي شيء آخر: وضع محمد قطب يده في كتاباته على "سيكولوجية الجحود". والآيات هنا تشخص حالة "الأفاك الأثيم" تشخيصاً دقيقاً: هو يسمع (إدراك حسي)، ثم يصر مستكبراً (حاجز نفسي)، كأن لم يسمعها (إنكار

1 – البغوي: تهذيب تفسير البغوي(معالم السنن) (ص1096).

معرفي). الكبر هنا ليس جهلاً، بل هو "موقف نفسي" يتخذ من آيات الله هزواً لحماية مكاسبه الأرضية.

النظم اللساني والبلاغي: تتجلى عبقرية النظم وعلم المناسبات عند البقاعي في (نظم الدرر)، والتفكيك البياني عند ابن عاشور في (التحرير والتنوير) من خلال لفتات بالغة الدقة:

براعة الاستهلال ولطيفة التنكير: البدء بالحروف المقطعة (حم) يقرع السمع، يليه مباشرة (تَنزِيلُ الْكِتَابِ). ورفع "تنزيل" على أنه خبر لمبتدأ محذوف (هذا تنزيلُ) يفيد الفخامة والقطع. ثم جاء الوصف باسمي الله (الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)؛ لأن الكتاب يحتاج إلى عزة تمنعه وتحميه، وحكمة تضع الأمور في نصابها.

سر الانتقال في فواصل الآيات: يذكر ابن عاشور لطيفة بيانية في الانتقال من (للمؤمنين) إلى (يوقنون) إلى (يعقلون):

مع السماوات والأرض قال (للمؤمنين)؛ لأن الإيمان العام يحصل بمجرد النظر فيها.

مع خلق الأنفس والدواب قال (يوقنون)؛ لأن تفاصيل الأجنة والأحياء تدفع الشك بالكلية فتوصل لليقين.

مع حركة الكون (الرياح، الليل، النهار) قال (يعقلون)؛ لأن حركة الحركة وتقلباتها تحتاج إلى إعمال العقل واستنتاج الروابط البنائية بين الظواهر.

ثم يأتي الالتفات المرعب: في قوله تعالى: (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ) خطاب لطيف للنبي ﷺ، ثم يلتف السياق فجأة بغضب عارم إلى الغائب والعموم: (فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ). هذا الالتفات يطرد الجاحدين من شرف المواجهة والخطاب المباشر.

الدقائق النحوية والاسرار التركيبية: التركيب النحوي في الآيات ليس مجرد قواعد، بل هو خادم للمعنى وعامل حاسم في توجيهه:

قوة التقديم والتأخير: في قوله سبحانه: (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ) تقدم الجار والمجرور (في السماوات) على اسم إنّ المؤخر (لآيات) المقترن بلام الابتداء (المزحلقة). هذا التقديم يفيد التشويق والاهتمام بمكامن الآيات أولاً، واللام تؤكد حتمية وجود الآية لمن ألقى السمع.

المشتقات والصيغ الصرفية: اختيار صيغة المبالغة (أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) على وزن (فَعَّال وفَعِيل) يدل على أن الكذب والذنب تحولا عنده إلى سجيّة وعمل مستمر لا ينقطع، ولهذا ناسبها الجزاء بصيغة المبالغة والتوكيد: (فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)، والبشارة

تأتي عادة بالخير، كالرياح مبشرات، لكن هنا تستعمل للتبكيت بعذاب أليم. نعوذ بالله من عذابه.

النفي بـ (لن) المفهوم من السياق: في قوله (وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا)، جاء النفي بـ (لا) متبوعاً بنكرة في سياق النفي (شيئاً) ليفيد الشمول المطلق؛ أي لا يغني عنهم أي شيء، لا قليلاً ولا كثيراً.

نهج العقيدة والتحقيق المعرفي: طالما ركّز شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم – رحمهما الله - على قضية "الآيات" وكيف أنها تدل على المؤثّر دلالة لزومية عقلية وفطرية، وليست مجرد قياس منطقي بارد.

أمّا ابن القيم فيركز على الرزق المادي والروحي، حيث يوضح في (مفتاح دار السعادة) عند قوله تعالى: (وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) أن الله سبحانه يجمع دائماً بين إحياء الأرض بالمطر، وإحياء القلوب بالوحي (الكتاب). فالسماء تمطر رزقاً للأبدان، وتنزل وحياً لرزق الأرواح.

تنزيه دلالة الآيات: يرد ابن تيمية على الفلاسفة الذين يرون الكون آلة صماء تعمل بالعلة الطبيعية؛ فالقرآن ينسب الحركة لـ (تصريفِ الرِّياح)، والتصريف يقتضي مُصرِّفاً حكيماً يقلبها جنوباً وشمالاً، حارة وباردة، عذاباً ورحمة، وهذا يبطل عفوية الطبيعة ويثبت الإرادة الإلهية الطليقة.

حقيقة العذاب المهين والأليم: المشاكلة الجزائية واضحة؛ المستكبر لما طلب العزة الزائفة بالاستكبار والـهزء بآيات الله (اتَّخَذَهَا هُزُوًا)، عوقب بنقيض قصده (لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)، فالمُستكبر يُهان، والمترف الذي يفر من ألم التكليف يُعذب بعذاب (أليم).

خلاصة: إن الآيات في مطلع الجاثية تقدم معادلة وجودية واضحة:

الكون مليء بالرسائل المشفرة (الآيات)، والقرآن هو فك شفرة هذه الرسائل. الإنسان أمام هذا التدفق إمّا أن يتسع وعيه ليكون من (المؤمنين، الموقنين، العاقلين)، وإمّا أن ينغلق وعيه كبراً وعناداً فيكون (أفاكاً أثيماً).

يقول ابن عاشور – رحمه الله- مجمِلاً هذا المعنى: "المحروم هو من يرى الحركة والسكون صباح مساء، ثم يعيش في الكون كأنه غريب عنه، لا يرى فيه إلاّ ذاته الشهوانية".

***(اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13) قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (15)** وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ

وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (16) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (19) هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (22)

تنتقل السورة في هذا المقطع من ملاحقة "الأفاك الأثيم" والتشخيص النفسي لامتناعه عن آيات الله، إلى تفصيل مظاهر الامتنان والتسخير الكوني، ثم تحديد منهج التعامل الاجتماعي والدعوي مع الجاحدين، وصيانة الجماعة المؤمنة بالاستقلال التشريعي، وصولاً إلى ميزان العدالة الإلهية المطلق الذي لا يسوي بين المحسن والمسيء.

المعيار المقاصدي والسياق النفسي والتربوي: يقسم سيد قطب هذا المقطع إلى نقلة شعورية عميقة؛ فبعد الوعيد الشديد، يفتح الله للإنسان كتاب الكون المذلل بين يديه ليتأمل حظه من الرعاية الإلهية:

من التسخير الكوني إلى التكليف التشريعي: يلحظ محمد قطب في فقه الدعوة أن الله تعالى صدّر المقطع بـ (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ) و(سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ). هذا الاستعراض للمنّة الكونية يهدف إلى صناعة الحياء النفسي في قلب المؤمن؛ فالكون كله خادمٌ لك، أفلا تكون عبداً لله؟ ومن هنا جاء الأمر بالانتقال إلى العبادة والشكر والالتزام بالشريعة (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا).

النظم اللساني والبلاغي والتناسب: لطيفة في قوله تعالى: (جميعاً منه): يقول ابن عاشور إن كلمة (جَمِيعًا) تأكيد لشمول التسخير، وكلمة (مِنْهُ) صفة لـ (ما في السماوات والأرض)، وهي لفتة عقدية بيانية تقطع دابر الشرك؛ فكل القوى الكونية ليست شريكة لله، بل هي نابعة من فضله وخلقه وإيجاده، ومسخرة بأمره وحده.

التربية على التسامي الأخلاقي: في قوله تعالى: (قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ)، يرى صاحب الظلال أنها مرحلة صقل الشخصية المسلمة بمكة؛ حيث يُربى المؤمنون على الاستعلاء على الأذى، وتفويض الجزاء لله (لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ). إنها تربية تخرج المؤمن من ضيق الثأر النفسي الشخصي إلى سعة الثقة بالعدالة الإلهية.

(لا يرجون أيام الله ) أي: لا يخافون وقائع الله ولا يبالون نقمته ، قال ابن عباس ومقاتل نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، وذلك أن رجلا من بني

غفار شتمه بمكة فهم عمر - رضي الله تعالى عنه - أن يبطش به ، فأنزل الله هذه الآية ، وأمره أن يعفو عنه.

وقال القرظي والسدي: نزلت في أناس من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أهل مكة كانوا في أذى شديد من المشركين ، من قبل أن يؤمروا بالقتال ، فشكوا ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فأنزل الله هذه الآية ثم نسختها آية القتال .

قوله تعالى: (ليجزي قوما) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي (لنجزي) بالنون ، وقرأ الآخرون بالياء ، أي ليجزي الله ، وقرأ أبو جعفر (ليجزى) بضم الياء الأولى وسكون الثانية وفتح الزاي ، قال أبو عمرو : وهو لحن ، قال الكسائي : معناه ليجزي الجزاء قوما (بما كانوا يكسبون).

الالتفات العجيب في النظم (من الغيبة إلى التكلم): بدأ المقطع بضمير الغيبة العائد على الاسم الجليل (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ)، وفجأة عند ذكر التشريع والمنّة بالرسالة يلتفت السياق إلى ضمير العظمة (المتكلم): (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ). هذا الانتقال يفيد تشريف النبي ﷺ، وعلو شأن هذه الشريعة بأن الله هو الذي جعلها مباشرة وبأمره المطاع.

بلاغة الاستفهام الإنكاري والتقسيم: في قوله (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ...) استخدام (أم) المنقطعة التي تقدر بـ (بل والهمزة)، تفيد الإضراب لإبطال زعمهم، والإنكار الشديد لتسوية الفجار بالأبرار. وفي قوله (سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ) تقسيم حصرَ الوجود الإنساني كله في مرحلتين، لينفي التسوية فيهما معاً بياناً لتمام العدل.

الدقائق النحوية والأسرار التركيبية: التوجيه الإعرابي والصرفي هنا يخدم مرامي العقيدة والدعوة بشكل وثيق:

جواب الأمر المقدر بـ (أنْ): في قوله (قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا)، الفعل (يغفروا) مجزوم في جواب الأمر (قل)، وعلامة جزمه حذف النون. والتقدير البياني: (قل لهم اغفروا، فإن قلت لهم ذلك يغفروا)، وهذا يدل على سرعة استجابة الرعيل الأول لأمر الله ورسوله، فكأن المغفرة تقع بمجرد صدور الأمر.

**دلالة اختيار لفظ "اجترحوا": (اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ) من الجوارح، وفي اختيار هذا اللفظ دون (عملوا) نكتة لغوية بالغة؛ فالجرح والاجتراح يطلق في الأصل على كسب السباع واصطيادها بجوارحها (أظرافها). فكأن المسيء في كسبه للسيئات يتصرف بشراسة ونهم يماثل نهم السَبُع الأعمى الذي يمزق فريسته دون عقل أو روية.**

إبهام المفعول به في "يغفروا": لم يذكر مقتضى المغفرة (يغفروا ماذا؟)، وحذف المفعول به هنا يفيد العموم؛ أي يغفروا لهم كل أذى، أو تطاول، أو استهزاء وقع منهم في حق المؤمنين.

وقد أصبح هذا خلقا متجذراً في الإسلام، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اعْفُ عمَّنْ ظَلَمَكَ، وصِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وأحسنْ إلى مَنْ أساءَ إليكَ، وقُلْ الحقَّ ولَوْ على نفسِك [1].

النظرة العقدية والتحقيق المعرفي: يقف شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم عند مفاصل عقدية ومعرفية خطيرة في هذه الآيات، خاصة ما يتعلق بسنن التاريخ والشرائع والعدالة:

آفة الاختلاف بعد العلم (البغي البيني): عند قوله تعالى في بني إسرائيل: (فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ)، يقرر ابن تيمية قاعدة معرفية كبرى: "العلم وحده لا يكفي للنجاة ما لم تصحبه زكاة النفس". فبنو إسرائيل لم يختلفوا عن جهل، بل اختلفوا بعد قيام الحجة والعلم، وكان الدافع هو (البغي)؛ أي الحسد، وطلب الرئاسة، والظلم المتبادل. وهي تحذير شديد لهذه الأمة من سلوك مسلكهم.

حقيقة الشريعة والهوى: يفصل ابن القيم في "إعلام الموقعين" عند قوله (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)؛ فالآية حصرت الثنائية الوجودية: إما شريعة وإما هوى، ولا يوجد خيار ثالث. الشريعة مبنية على العلم والحق، والأهواء مبنية على الجهل (الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ). وكل من خرج عن الشريعة في حكم، أو تصرّف، أو ولاية، فقد اتبع الهوى طرداً وعكساً.

تلازم الخلق والعدل (الجزاء المشاكل): يربط ابن القيم بين آيتين: الأولى (سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) ونفيهم للعدل، تليها مباشرة (وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ).

الحق الذي خُلقت به السماوات والأرض يقتضي -بالضرورة العقلية والفطرية- وجود دار جزاء. لو تساوى المحسن والمسيء لكان الخلق عبثاً وباطلاً، وحاشا للحق **سبحانه أن يخلق كوناً هائلاً مبنياً على الحق، ثم يتركه ينتهي إلى نهاية ظالمة يتساوى فيها الطاغية بالضحية.**

خلاصة: يعطينا هذا الدرس من سورة الجاثية ميزاناً مطرداً: الله سخر الكون كله لخدمة الإنسان، ومنحه البصائر والهدى والرحمة متمثلة في "الشريعة".

---

1 – أخرجه ابن الأعرابي في ((معجمه)) (1507) باختلاف يسير، وابن النجار كما في ((كشف الخفاء)) للعجلوني (32/2) واللفظ له، قال الألباني عن سنده: صحيح لغيره.

ومن سار على الشريعة صفت حياته ومماته، ومن اجترح السيئات كسر ناموس الحق الكوني، وخرج عن العقل واليقين؛ وبناء عليه، تقتضي عدالة فاطر السماوات والأرض أن يفترق المصيران في المحيا والممات، وفي الجزاء والمآل.

*(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ **(26) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (28) هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (29) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (31) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ(32) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (33) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (34) ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (36)** وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(37) )

يصل السرد القرآني في ختام سورة الجاثية إلى ذروة التناهي الجلالي، حيث يُكشف الغطاء عن أعمق المحركات النفسية للإلحاد والمجهود البشري عبر التاريخ، ثم تنعطف الآيات بالمشهد نحو فضاءات القيامة الرهيبة، لترسم لوحةً كونية خاشعة تنتهي باحتكار الحمد والكبرياء لله وحده.

المعمار المقاصدي والسياق النفسي والفلسفي (ظلال قطب والتحليل المعرفي)

يرى سيد قطب وشقيقه محمد قطب أن هذا المقطع يمثل "التشريح النهائي" لمنظومة العقل الجاحد، ويرسم مآلات الاستكبار في مشهد كوني شاخص:

تأليه الهوى والعمى المعرفي: في قوله (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ)، يسلط القرآن الضوء على منبع وجرح الضلال الإنساني؛ فالهوى ليس مجرد شهوة عابرة، بل هو "مركز توجيه بديل" يحل محل الإله. ويلفت محمد قطب إلى خطورة قوله تعالى:(على علم)، فالإنسان قد يملك أدوات المعرفة والذكاء، لكن **انحراف الإرادة النفسية (الهوى) يحيل هذا العلم إلى حجاب، فيسلب الله منه آلات** التلقي (السمع، القلب، البصر).

الفلسفة الدهرية المادية: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ)؛ هذا هو المنطلق الأساسي لكل فلسفة مادية وإلحادية قديماً وحديثاً. إنهم يفسرون الحياة بالآلية الصماء والزمن الممتد (الدهر). ويعلق سيد قطب بأن تجريد الموت والحياة من الصانع الحكيم يجعل الوجود عبثاً، ويحرم النفس من التطلع إلى الكمال الأخلاقي.

سيكولوجية الاستهزاء: كشفت الخاتمة الداء الدفين: (ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا). الهزء هو السلاح النفسي الذي يستر به المستكبر عجز حجته أمام سطوع الحق، والغرور بالدنيا هو الذي أطال أملهم فحُرموا الاستعتاب.

النظم اللساني والبلاغي والتناسب: تتجلى عبقرية التصوير الفني والمناسبات عند البقاعي، والتحرير اللغوي عند ابن عاشور في لوحات بيانية أخاذة:

المشهد القرآني الشاخص (الجاثية): في قوله (وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً)، يبرز اسم السورة كأعظم لقطة تصويرية لخشوع الخلائق. يقول البقاعي: الجثو هو البروك على الركب، وهو وضع المستسلم، الخائف، المنتظر للقضاء. وفي التعبير بـ (كُلَّ أُمَّةٍ) تعميم مرعب يذوب فيه كبرياء الجبابرة والدول والقرون.

استعارة النطق للكتاب: (هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ)؛ الكتاب لا ينطق حقيقة، ولكنه لما كان بيانه قاطعاً لا يحتمل الشك، استعير له فعل "النطق" مبالغة في تبيين الحجة.

قلت: أو يقال أحوال الآخرة تختلف، فقد ينطق الكتاب، تماما مثلما تشهد الجلود وغيرها من الأعضاء نسأل الله السلامة.

المشاكلة والمقابلة الغيبية: في قوله (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا). الله سبحانه لا يضل ولا ينسى، ولكن أطلق "النسيان" هنا على سبيل المشاكلة البلاغية والجزاء الوفاق؛ أي نترككم في العذاب ترك المنسي المهمل، لأنكم أهملتم الإعداد لهذا اللقاء، نسأل الله رحمته.

قصر الصفات في الخاتمة: قوله (فَلِلَّهِ الْحَمْدُ) بتقديم الجار والمجرور يفيد القصر والحصر، وكذلك (وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ). هذا القصر جاء رداً على كبر المستكبرين في الدنيا وتأليههم لأهوائهم، إنّ السياق يقول: انقشعت كبرياء الخلق، وتمحضت العظمة والحمد للملك الديان.

الدقائق النحوية والأسرار التركيبية: تخدم البنية النحوية والصرفية دلالات التوكيد والتقريع في الآيات:

موقع "على علم": قوله (وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ)، الجار والمجرور في محل نصب حال. وهناك توجيهان بيانيان ذكرهما الزمخشري وابن عاشور:

إما حال من الفاعل (الله)؛ أي: أضله الله عالماً بحاله وأنه لا يستحق الهداية.

أو حال من المفعول (الهاء في أضله)؛ أي: أضله الله مع كون هذا الإنسان صاحب علم ومعرفة، ولم ينفعه علمه لاتباعه الهوى، وهذا أبلغ في الذم والتقريع.

الاستغراق والنسخ الصرفي: في قوله تعالى: (إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)؛ استخدام مادة (نسخ) بزيادة السين والتاء (نستنسخ) تفيد الطلب والمبالغة في نقل الأعمال وكتابتها بدقة متناهية لا تغادر صغيرة ولا كبيرة، فالنسخ نقل الشيء بحروفه ودقائقه دون تغيير.

ترتيب النفي والتوكيد في سياق الشك: عندما حكى القرآن قولهم: (مَّا نَدْرِي مَا السَّمَاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ):

جاء نفي العلم أولاً بـ (ما ندري)، ثم جاء إثبات الشك مؤكداً بالمفعول المطلق (إن نظن إلا ظناً)، ثم جاء نفي اليقين مؤكداً بالباء الزائدة في خبر ما النافية الحجازية (وما نحن بِمستيقنين)؛ ليدل على تمكن الشك والظن من قلوبهم واستحكام النفي لليقين لديهم.

التحقيق المعرفي والعقدي: يفكك شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم المقولات المعرفية الكبرى في هذا المقطع، مرسخين قواعد الوحي ضد الطعونات الدهرية:

العلم بلا زكاة لا يهدي: يعلق ابن تيمية على آية اتخاذ الهوى إلهاً هو أصل كل بدعة وضلالة؛ فالعبد إذا أحب شيئاً لغير الله واستحكم حبه في قلبه صار عبداً له، ولذلك فإن أصحاب الكلام والفلسفة ممن ردوا الشريعة بعقولهم، اتخذوا عقولهم وأهواءهم آلهة، فأضلهم الله على علم، ولم تغنِ عنهم ذكاءاتهم شيئاً لأن التوفيق بيد الله وحده.

إبطال الإحتجاج بالظن في العقائد: ينبه ابن القيم في الصواعق المرسلة عند قوله (وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)؛ أن الله ذم الدهرية والمبطلين لأنهم بنوا أصول وجودهم ومصيرهم على "الظن" والخرص والتوهم، بينما العقائد والمصير الإنساني لا بد أن يبنى على "العلم والوحي والآيات البينات".

**لطيفة تخصيص الكبرياء لله: في قوله تعالى: (وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ** وَالْأَرْضِ)، يربط ابن القيم بينها وبين الحديث القدسي: "الكبرياء ردائي، والعظمة

إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار"[1]. سورة الجاثية عاقبت المستكبرين لأنهم نازعوا الله صفة (الكبرياء) في الدنيا، فكانت الخاتمة حاسمة بأن الكبرياء رداء إلهي خالص لا يجوز لبشر أن يتلفع به.

خلاصة: هكذا تختم سورة الجاثية جولتها الكبرى التي بدأتها بالآيات الكونية والقرآنية؛ فبينما يعيش الإنسان الدهري في أوهام القوة متخذاً هواه إلهاً، حاسباً أن الموت نهاية المطاف، يفاجئه المشهد الإلهي بكونٍ جاثٍ على ركبه بين يدي ديان السموات والأرض، أمام كتابٍ "ينطق بالحق مستنسخاً أدق خلجات النفس".

يقول ابن عاشور مجمِلاً هذا الختام الجليل: "جاءت فواصل السورة وخاتمتها بـ (العزيز الحكيم) لتطابق مطلعها؛ ليعلم الإنسان أن هذا الوجود محكوم بعزة تمنع الانفلات، وحكمة تضع الأمور في مواضعها، فسبحان من له الحمد وله الكبرياء".

1 – أخرجه أبو داود (4090)، وأحمد (9359) واللفظ لهما، وابن ماجه (4174) باختلاف يسير، قال الألباني عن سنده: صحيح.

# المراجع